كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم
• العدد ٢٦٧ • ابريل ١٩٨٧

محمود عوض





تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية



• الطبعة الأولى ١٩٦٩ • الطبعة الرابعة ١٩٨٧ •

أم كلثوم التى لا يعرفها أحد



• العدد ٢٦٧ • ابريل ١٩٨٧ •

الغلاف بريشة : حسين بيكار

الماكيت .... : محمد عفت

مقدمة الطبعة الرابعة

.. ودارت الأيام مع أم كلثوم

عاشت أم كلثوم خمسين سنة من حياتها فى الصفحة الأولى .

تلك كانت بعض الكلمات التى كتبتها فى مناسبة رحيلها عنا فى سنة ١٩٧٥ .. كلمات أضاف الزمن إليها أشياء .. وخصم منها أشياء .. حينما نتأمل اليوم أم كلثوم .. زائد بضع سنوات من الغياب .

لقد خصم الزمن مثلا وفاء بعض الأقرباء .. فى نفس اللحظة التى تراكمت فيها مشاعر الغرباء .. لم يعد هناك - مثلا مثلا - ذلك المبنى الشهير على نيل حى الزمالك بالقاهرة ، باسم : فيللا أم كلثوم .. إن الورثة قاموا ببيعه إلى أحد المستثمرين ، فى صفقة أعطت من المال بقدر ما سحبت من المشاعر .

وقد تعلل كثيرون بأن الدولة هى التى كان يجب أن تشترى الفيللا من حر مالها .. حتى تجعلها متحفا يحمل اسم أم كلثوم . ولكن الدولة هنا ليست كائنا بشريا مثلى ومثلك . الدولة ليست سوى وكيل عن هذا الشعب بفقرائه وأغنيائه .. معا . وليس من مهمة الدولة أن تسير فى الشوارع ناثرة أموالها هنا وهنالك .. تحت حجة أو أخرى .. لا لشىء سوى أن البعض يريدون أن يحملوا الدولة ما كان يجب أن يقوموا هم به .

ثم إن الدولة لم تقصر فى السعى إلى الشراء فيللا أم كلثوم . فقط .. فقط .. طلبت الدولة من الورثة أن يتعاونوا معها حتى لا تكون الصفقة مجرد بيع وشراء . ولأن هذا لم يحدث .. فقد انتهت القصة هنا نفس النهاية الكلاسيكية فى كل مرة . انتهت بلا شىء !

. والآن يتساءل البعض : أين مشروع دار أم كلثوم للخير ؟

وفعلا : أين مشروع دار أم كلثوم للخير ؟!

. إن هذا المشروع قد تكون له خفايا عديدة .. ولكن بدايته كانت بلا خفايا . بدايته كانت واضحة تماما . لقد قامت أم كلثوم بدعوة عدد من أصدقائها الذين تثق فيهم لكى تعرض عليهم فكرتهما البسيطة للغاية . فكرة أن تقيم دارا خيرية لتعليم الفتيات اليتامى أشغال التطريز والحياكة وما إلى ذلك .

يومها .. ونحن نتشاور مع أم كلثوم فى جلستنا الهادئة بنادى الضباط بالزمالك فى القاهرة ، كانت هناك آراء متعددة بقدر تعدد الحاضرين . لقد كان فى المقدمة فكرى أباظة وصالح جودت والدكتورة عائشة راتب (وزيرة الشئون الاجتماعية حينئذ) وعثمان أحمد عثمان وأنيس منصور وحسن زكى (رئيس بنك القاهرة حينئذ) وحمدى عاشور (محافظ القاهرة حينئذ) .. والذى أصبحت الدعوات إلى الاجتماعات التالية ترد إلينا باسمه .

وقالت لنا أم كلثوم : أننى أفكر فى عمل مشروع خيرى ، قدرت له ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف جنيه ـ كان هذا فى سنة ١٩٧٢ ـ وهدفى منه أن يكون مكانا للفتيات اليتامى .. يتيح لكل منهن موردا شريفا للعيش .. ومكانا آمنا للحياة .

وخلال دقائق .. كانت الفكرة قد تحولت إلى مجرى آخر تماما .
لقد قال عثمان أحمد عثمان : عشرين ألف جنيه .. إيه وثلاثين ألف جنيه .. ياست ؟ بقى أم كلثوم بجلالة قدرها .. أم كلثوم كوكب الشرق .. لما تعمل مشروع .. تعمله بعشرين ألف جنيه ؟ ومن جيبها ؟ ليه ؟ خلاص ؟ مفيش وفاء ؟ مفيش خير في البلد ؟

— طيب .. عايز تقول إيه يا عثمان ؟

— عايز أقول أن أم كلثوم لما تعمل مشروع .. يبقى لازم يكون فيه مسرح ، ومتحف ، وقاعة حفلات ، وستوديو ، ولوكاندة ، وسينما و .. و .. حاجة كده لا تقل عن مليون جنيه !

وقاطعه احد الحاضرين بانزعاج شديد قائلا على الفور : مليون جنيه ؟ طيب .. وأم كلثوم تدفع المبلغ ده منين ؟

لكن جراب الحاوى لم يكن يخلو أبدا من الابتكارات .

لقد قال عثمان احمد عثمان : ومين قال إن أم كلثوم تدفع مليم واحد من جيبها ؟ احنا نعمل يانصيب .. قيمة التذاكر فيه مليون جنيه .. ونقول ده علشان مشروع أم كلثوم للخير .. وبعدها .. شوفوا بقى الناس حاتدفع كام .. وحتى بلاش الناس .. كفاية الأمراء العرب .. مش كده ياست ؟!

وتساءل رئيس بنك القاهرة : لكن مشروع كبير زى ده تلزمه مصروفات في البداية .. وتكاليف للدعاية والطباعة والاعلان .. من سيدفع المصروفات ؟

كان عثمان أحمد عثمان جاهزا للرد : بنك القاهرة يدفع المصروفات .. وياسيدى إن كانت المسالة مسالة ضمانات .. احنا نضمن لك السداد ..

وتساءل أحدهم : احنا مين ؟ المقاولين العرب ؟

رد عثمان : لا .. لا .. (شركة) المقاولين العرب تضع التصميمات والرسومات .. لكن احنا .. اللى قاعدين هنا .. اكبر ناس في البلد .. نكون ضامنين للقرض الذى سنحصل عليه من البنك في البداية .. بعدها المشروع يصرف على نفسه .

وهنا صرخ فكرى أباظه مقاطعا : يا عثمان .. احنا كلنا لو جمعتنا

على بعض دلوقت ..مش حاتطلع بمائة جنيه .. أنت فاهم مهنة الكتابة زى مهنة المقاولات ؟!

لكن صراخ فكرى أباظة تبخر فى الهواء .. وكان لابد أن يحدث ذلك .

وفى اليوم التالى قالت لى أم كلثوم بطريقة تبدو عابرة : لماذا كنت صامتا تماما أمس ؟

قلت لها ببساطة : إننى مع الفكرة الأساسية التى بدأ بها الاجتماع .. ولكننى لست مع الفكرة الأخرى التى تطور إليها .. فحينما تخرج أم كلثوم إلى الناس لكى تقول لهم : إننى سأقيم مشروعا خيريا بهذه العشرين ألف جنيه من مالى الخاص .. سيتفهم الناس فورا الرسالة التى تريد أم كلثوم أن تقولها . أما حينما تخرج أم كلثوم إلى الناس لكى تقول لهم : إننى أريد أن أقيم برجا ضخما على شاطىء النيل ، يحمل اسمى ، ولكنه سيتم بأموالكم ، فهذا شىء آخر يختلف تماما .

ولم يكن أسوأ ما فى الموضوع هوالتعديل الجذرى الذى طرأ على فكرة أم كلثوم الأصلية .. وهو تعديل كانت أم كلثوم نفسها متململة منه تماما .. ولكن الفكرة كانت هى الظروف القائمة ذاتها . لقد كانت ظروف النكسة قائمة ، والناس قلقون ومرهقون تماما ، والدولة تبدو فى واد .. والناس فى وادى آخر .. ووسط هذا كله .. تخرج الحملة الأعلانية فجأة لكى تطرح على الناس فكرة هذا اليانصيب الكبيربمليون جنيه .. لتمويل مشروع أم كلثوم للخير !

وقد سار المشروع بعد ذلك فى دهاليز عديدة ليس هذا مكانها .. وعبرت مياه كثيرة نيل الزمالك فى القاهرة حيث (كانت) توجد فيللا أم كلثوم .

وقبل سنوات قليلة تقابلت بالصدفة مع عثمان أحمد عثمان . ولأننا لم نكن قد تقابلنا منذ الفشل الكامل الذى واجه مشروع اليانصيب ، فقد بادرنى عثمان بقوله :

— ياأخى البلد دى مافيهاش وفاء .. ! إه اخبار مشروع أم كلثوم ؟ !

ويومها قلت له : لكى أعطيك الاجابة الصحيحة .. يجب أن نتبادل الأدوار .. فأصبح أنا عثمان أحمد عثمان .. وتصبح انت كاتبا بسيطا لا يعيش فى الدهاليز !!

خصم الزمن إذن أشياء عديدة من كلماتى عن أم كلثوم حينما رحلت عنا .. لقد خصم أولئك الذين استداروا بوجوههم إلى الناحية الأخرى ، فيما بدا لهم أن أم كلثوم شمس تغرب .. أما الشمس التى توشك أن تشرق ، ففى مكان آخر . وخصم الزمن أولئك الفريق الذين كانت أم كلثوم بالنسبة لهم مجرد وسيلة ضمن وسائل أخرى عديدة .. يتم بها تسلق السلم إلى أعلى . وخصم الزمن كذلك أولئك الذين لفقوا على لسان أم كلثوم بعد رحيلها كلمات لم تقلها .. ومواقف كانت تؤمن بعكسها .

ولكن الزمن - أيضا - أضاف إلى أم كلثوم أبعادا جديدة .

لقد أضاف الزمن .. مثلا مثلا .. معنى أن تكون فنانا منتميا إلى هذه الأرض .. فأم كلثوم كانت تنطلق بصوتها قويا وشجيا عل خشبة المسرح . ولكن .. فيما وراء خشبة المسرح .. كانت أم كلثوم هى تلك الفنانة الريفية البسيطة التى تعرف أن الوطنية انتماء .. وليست هتافات .

حينما تعرضت مصر مثلا للغزو الثلاثى فى سنة ١٩٥٦ ، وأصدرت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا قرارا بتجميد الأرصدة المصرية لديها ، ولم يعد فى مصر أية أرصدة أجنبية تسمح حتى باستيراد الأدوية والأغذية .. ذهبت أم كلثوم على الفور تتبرع بما تملكه .. وتعرض ما تستطيعه .

وحينما فعلت أم كلثوم ذلك ، فإنها لم تفعله أمام الكاميرات وأجهزة التسجيل . لقد فعلته بتواضع .. وفى صمت .. بحيث لم يعرف أحد بذلك إلا بعدها بسنوات عديدة .

وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، اهتزت أم كلثوم من الأعماق بمثل ما اهتز ملايين المصريين . لكن أم كلثوم أدركت بغريزتها أن القضية أصبحت هى : النهوض من جديد .. والقضية هى : ألا نفقد إيماننا أبدا بصحة الاستقلال الذى نريده .. والقضية هى : ألا نسمح لعدونا أبدا بالنجاح فى تشكيكنا بأنفسنا .

ولأنها فنانة ، ولا تملك سوى صوتها ، فقد بادرت أم كلثوم على الفور إلى تنظيم سلسلة من الحفلات الغنائية التى تقوم باحيائها فى محافظات مصر ، وفى العالم العربى أيضا . حفلات كان هدفها الأساسى هو جمع

التبرعات لصالح المجهود الحربى .. وأسفرت فى النهاية عما يزيد عن مليونين من الجنيهات ـ بأسعار الستينات .

لكن أم كلثوم حينما فعلت ذلك ، لم تذهب إلى الاذاعة والتليفزيون لكى تطلب إذاعة حفلاتها هذه .. ولا سمحت لأحد بأن يلوى المناسبة لكى يختلط العام بالخاص .. ويصبح المجهود الحربى وسيلة ملتوية للمزيد من الأضواء والشهرة . أم كلثوم لم تنقصها أضواء .. ولا شهرة . لقد فعلت ذلك فى صمت .. وبإصرار حقيقى .. وتواضع منقطع النظير .

الآن إذن ، وبعد سنوات من رحيل أم كلثوم .. خصم الزمن أشياء ، وأضاف أشياء . لكن الحساب الاجمالى يستقر فى النهاية عند الحقيقة الموجودة : إن أم كلثوم لم تكن مجرد مطربة .. ولا مجرد نجمة .. لقد كانت دنيا بأسرها . لقد كانت فتاة ريفية بسيطة ، جاءت إلى القاهرة ، وفى ذهنها حلم محدد تريد أن تحققه .

وفى الطريق إلى تحقيق هذا الحلم ، أدركت أم كلثوم الدرس الأساسى فى الموضوع كله : إن الذى لا يحترم فنه .. لا يحترمه فنه .

و... وربما كان هذا بعض السبب الذى جعلنى أتحمس لفكرة هذا الكتاب فى سنة ١٩٦٩ . لم تكن الفكرة فكرتى .. لأنها فى الواقع كانت فكرة مؤسسة « أخبار اليوم » التى أعمل بها . إن المؤسسة كانت قد بدأت فى إصدار هذه السلسلة من الكتب الشهرية ـ « كتاب اليوم » ـ قبل شهور . وأراد بعض المسئولين عن المؤسسة حينئذ إصدار كتاب عن أم كلثوم .. واختاروا بالفعل من يكتبه .

ولكن أم كلثوم رفضت الفكرة فى حينها جملة وتفصيلا .

وطلبت المؤسسة من إحسان عبد القدوس ـ رئيس تحرير « أخبار اليوم » حينئذ ـ التوسط لدى أم كلثوم ، باعتباره من أقرب أصدقائها الذين تثق فى حسن تقديرهم .

وحينما أخبرنى إحسان عبد القوس بأن أم كلثوم قد وقع اختيارها على أنا لأكتب هذا الكتاب ، كشرط لموافقتها على صدوره ، أصابتنى حالة فزع . بل .. ما هو أكثر من الفزع . فلم يخطر ببالى من قبل أن يكون أول كتاب يقدر لى أن أصدره .. سيكون عن ام كلثوم .. ثم إن جمهور أم كلثوم هوبالملايين فى مصر والعالم العربى كله .. ولن يتقبل هذا الجمهور مطلقا عن أم كلثوم المكتوبة نثرا بين صفحات كتاب ..

ما هو أقل مما يعرفه عن أم كلثوم المتألقة غناء على موجات الأثير ..
وإذا قدر لمثل هذا الكتاب أن ينجح فالتفسير جاهز بالطبع ، وهو أنه من الطبيعى أن ينجح لأنه عن أم كلثوم .

أما إذا لم ينجح الكتاب ؟

وحينما أدرك إحسان عبد القدوس مخاوف هذه قال على الفور : إنك ترى الأمر مشكلة .. بقدر ماأراه أنا تحديا .. ثم ، ألست أنت واحدا من هذا الجيل الجديد الذى يتطلع إلى التحديات ؟

وبدأت مشاوراتى مع أم كلثوم بشأن الكتاب .

وكانت هناك لحظات اتفاق .. بقدر لحظات الاختلاف .

فأم كلثوم كانت شديدة التحفظ فى رواية تفاصيل ذكرياتها الخاصة . لقد نشرت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد جزءا من مذكرات أم كلثوم فى الكتاب الذى أصدرته فى سنة ١٩٥٢ . وكتب الأستاذ ، المرحوم ، على أمين فصلين من مذكرات أم كلثوم فى مجلة « هى » فى سنة ١٩٦٤ . والآن توافق أم كلثوم على أن تروى لى من مذكراتها ما يكفى لفصلين جديدين للكتاب ..

وأم كلثوم توافق على تناول دور محمد عبد الوهاب فى تطورها الغنائى . ولكنها ترى أن رياض السنباطى لعب فى تاريخها الغنائى دورا أكبر لا يمكن تجاهله . وبالطبع ، لم تكن القضية بالنسبة لى مطلقا قضية تجاهل .. ولكنها قضية أن السنباطى نفسه كان عزوفا تماما عن الحديث منذ سنوات طويلة .

وأم كلثوم كانت عنيدة فى إصرارها على عدم الحديث عن حياتها الخاصة ، وتتمسك بفكرة أن شخصيتها كمطربة هى كل ما يعنى - ويجب أن يعنى - القارىء والمستمع .

أشياء وأشياء .. اختلفنا فيها أحيانا .. واتفقنا فيها أحيانا .. حتى يصل الكتاب إلى مستوى توقعات القارىء . وحينما أعود الآن بالذاكرة إلى الخلف .. فأنني أدرك فعلا .. إلى أى حد كانت أم كلثوم صبورا معى .. صبورا .. ومتفهمة .. ومدركة للحقيقة الجوهرية .. وهى أن كل جيل إنما يعبر عن عصره هو ، بأكثر مما يعبر عن عصر مضى .

مع ذلك .. يظل طموح المرء دائما نحو الأكثر اكتمالا وشمولا وموضوعية . لقد سجل الكتاب فى حينها انتشارا قياسيا ، وطبع بدل

المرة ثلاث مرات ، وبعدها تكرر اعتذارى لناشرين عديدين عن عدم الموافقة على إصدار طبعات جديدة من الكتاب .

وحينما أخبرني الأستاذ طلعت الزهيرى رئيس مجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم عن عزمه إصدار طبعة جديدة من هذا الكتاب ، كنت أنا الذى تململت . إن الكتاب هو كالصورة الفوتوغرافية .. التى تعبر عن لحظة التقاطها . ومن هنا ، فانني حينما عدت إلى الكتاب من جديد .. وجدت الكثير مما يمكن إضافته .. والأسرار التى حان وقت الكشف عنها وتفسيرها .

لكن هذا كان يعني بالنسبة لى أن أصدر كتابا جديدا .

وفى النهاية ، وجدت نفسى منحازا إلى فكرة صدور الكتاب كما هو ، بعد إضافة فصل ختامي كنت قد كتبته ونشرته فى « أخبار اليوم » فى مناسبة رحيل أم كلثوم .. إننى فى هذا الانحياز - واعترف - افعل ذلك .. لأن الكتاب الأول ، هو مثل الحب الأول .. يحتفظ بمكانته دائما من حيث هو .

إننى ، فى عودتى إلى قراءة هذا الكتاب ، أعود فى الواقع إلى مقتبل حياتى الصحفية .. حينما كان الحلم يسبق الواقع .. والمشاعر تسبق الزمن .

والآن .. دار الزمن .

ودارت الأيام .. دارت بأم كلثوم .. وبنا .. وبواقعنا وأحلامنا .. ولكن صوت أم كلثوم ما يزال فى القلب كما كان دائما .. إننى مازلت اتذكر مداعباتها .. واختلافاتها .. ومواقفها غير المعلنة .. بقدر ما أتذكر حزنها الأكبر فى سنواتها الأخيرة . حزنا .. جعلها تمتنع عن الغناء سنة كاملة .. وفى الحفلة الأولى التى قررت أن تغنى فيها بعد الامتناع ، اختارت أن تبدأ الحفل بأغنية محددة سبق لها أن غنتها .. ولكنها الآن تريد أن تبدأ بها حفلها الجديد .. وبشعور جديد .. وإحساس متغير .

هكذا خرجت أم كلثوم إلى الناس تغنى : .. ودارت الأيام !

وبهاتين الكلمتين فقط .. أدرك الجمهور فورا كل ما كانت أم كلثوم تريد أن تقوله ، وربما دفعت الثمن من أجله .. حتى رحيلها !

● محمود عوض

مقدمه الطبعة الأولى

صديق لا أعرفه

•• كم الساعة الآن ؟ ! ..

سؤال يقفز الى ذهنى كلما فكرت فى أم كلثوم ، عندما أستمع اليها تغنى ، تتكلم ، تناقش ، بل - حتى - وهى تستمع .. أكتشف أن الوقت قد خدعنى . عندما أمد يدى الى شريط من أغانى أم كلثوم .. أى شريط ..

فاننى أديره لكى أستمع منه إلى خمس دقائق ، عشر دقائق ، ربع ساعة ، ولكننى أكتشف فجاة أن الوقت قد جرى منى دون أن أدرى . أكتشف سؤالا يقفز إلى ذهنى فجأة : كم الساعة الآن ؟ ! .. الساعة السابعة ، الثامنة ، التاسعة ، العاشرة مساء . أربع ساعات قضيتها وانا أستمع .. إلى أغنية لم أسمعها منذ مدة طويلة ـ منذ أربع ساعات ـ تصور وبينما أستمع إلى أم كلثوم فربما ـ ربما ـ أتنبه إلى الوقت من جديد قرب منتصف الليل . ايه ؟ ! كم الساعة ؟ ! منتصف الليل ؟ ! لا .. لا .. هذا كثير ! ..

ولكن لايوجد كثير عندما تستمع إلى أم كلثوم ، لم يعد هناك كثير من التصفيق .. كثير من الانفعال .. كثير من الوقت .. تحول الكثير إلى شيء عادي . روتين . عادة . بل انني أعرف صديقا يحدث له أكثر من هذا عندما يستمع إلى أم كلثوم ، إذا أعطيت لصديقي هذا كرسيا وطلبت منه أن يجلس عليه .. فانه سوف يجلس .. ساعة ، يوما ، أسبوعا ، لوم لزم الأمر . صديقي لن يطلب منك شيئا أكثر من الطعام و .. اسطوانات أم كلثوم ! ..

إنني لا أعرف صديقي هذا . أعرف فقط أن اسمه هو (م) . هذا اسمه ـ ميم ـ .. نقطة . أنني لا أستطيع كتابة أسماء مليون شخص ، مائة مليون شخص ، يفعلون ما يفعله صديقي هذا عندما يستمعون إلى أم كلثوم ..

هؤلاء هم جمهور أم كلثوم ..

ومنذ وقت طويل مضى ، اعتادت أم كلثوم على هذا الحب من جمهورها ، انها تستمع منهم إلى التصفيق . ثم ماذا بعد ذلك ؟ التقدير . ثم ماذا ؟ الشهرة ، الاعجاب ، الحب ـ نعم ـ ثم ماذا أخيرا ؟ التصفيق من جديد .. هذا كل شيء ..

ومعنى ذلك أننا لم نعرف أكثر من ١٥ ٪ من أم كلثوم ، لم نشاهدها سوى كل ليلة خميس تغني فيها ، هذا كل ما نعرفه . أما حياة أم كلثوم ـ شخصية أم كلثوم ـ ابتداء من الجمعة إلى الأربعاء ، من الصباح إلى المساء ، من الفجر إلى العشاء ، فلم نعرف عنها الكثير بعد . ما زالت شخصية أم كلثوم نحتاج الى إكتشاف .. إلى تحليل . إلى إعادة نظر ..

إكتشاف آخر : أن أم كلثوم هي السبب في هذا كله ! .. لقد أقامت أم كلثوم سورا صينيا حول شخصيتها ، سورا عاليا .. سورا يحجب ما في داخله ، خلف هذا السور تحتفظ أم كلثوم بحياتها الخاصة ، بشخصيتها الخاصة ، بافكارها الخاصة . أن أم كلثوم قد اتخذت قرارا اختياريا سابقا : أن تعيش حياتها بين قوسين ..

وشيئا فشيئا بدأت أحاول إقناع أم كلثوم أن تفتح القوسين ، ان تفتح باب السور حتى يعرف الناس ان كل حياتها ، كل شخصيتها كل تفكيرها ، شهر وشهر .. وسنة .. ثم بدأت أم كلثوم تتكلم ، بدأت

تتكلم ـ بعد سنة ـ لكى تروى لى أشياء كثيرة جدا .. أشياء أستطيع تلخيصها تحت عنوان واحد : لا شيء ! .. ولا حرف ، ولا كلمة ، ولا ـ حتى ـ وعد بكلمة ..

ولكننى حاولت من جديد .. مرة .. ومرة .. ثم ـ أخيرا ـ بدأت أم كلثوم تتكلم . تتكلم فعلا ..

فى هذه المرة كان حديثى مع أم كلثوم يبدأ على أساس أنه سيستغرق نصف ساعة ـ بالكثير ساعة ـ ولكن .. ها هو السؤال من جديد يقفز إلى ذهنى تلقائيا : كم الساعة الآن ؟ لحظتها إكتشفت أن الساعة قد توقفت منذ ساعة ، ساعتين ، ثلاث ، أربع ـ أحيانا خمس ـ ساعات ! ..

وفى كل مرة كنت أعود إلى الأوراق التى كتبتها من حياة أم كلثوم . اعادة نظر . ماذا فى يدى ؟ أوراق ـ نعم ـ ولكن .. ياه كل هذه الصفحات .. ؟ كل هذه الأسرار عن شخصية أم كلثوم ؟ ..

إن أم كلثوم بدأت حياتها من لا شيء . أقل من لا شيء .. من الصفر .. من تحت الصفر .. ولكنها إستطاعت أن تصل إلى قمة لم يصل اليها أحد ، ثم استمرت فى وقت لا يستمر فيه أحد .. وفيما بين النقطتين ـ القاع والقمة ـ واجهت أم كلثوم مواقف كثيرة : الفقر ، الجوع ، الحرمان ، الشقاء ، اليأس ، الهزيمة ، السقوط ، الفشل ، الألم ، العذاب ، كثيرا من العذاب ، ثم ـ بعد وقت طويل ـ النجاح ، مواقف لا يعرفها أحد ..

فيما بين القاع والقمة كان فن أم كلثوم هو ـ فى الواقع ـ الطريقة التى عاشت بها ، حياتها نفسها .. هى الفن .. فن أم كلثوم هو حياتها ، وحياتها هى شخصيتها ، وشخصيتها هى ـ من جديد ـ المفتاح الرئيسى ـ لفهم أم كلثوم . أن أم كلثوم هنا هى نموذج ، هى رمز ، رمز لشخصية ، لحياة ، لمجتمع ، لظروف هذا المجتمع .

و .. ..

الصفحات القادمة هى حصيلة هذا كله .. حصيلة أفكار أم كلثوم .. وأفكار المجتمع عن أم كلثوم .. نصفها مذكرات منها ، ونصفها مذكرات عنها . حل وسط ..

وفى هذه النقطة أريد أن أنبه إلى شىء هام : أننى أعشق صوت أم كلثوم ، ولكننى لا أعبده . فى الواقع أننى أنتمى إلى جيل جديد لا « يعبد » أحدا . جيل يحب ، يعجب ، يعشق .. ولكنه لا يفعل - حتى هذا - إلا بعد أن يفهم .. ويناقش . جيل يرفض إستثناء أحد من المناقشة .. والمراجعة ..

وأم كلثوم نفسها متفقة معى فى هذه النقطة . بل أنه فى ماكانين على الأقل من هذا الكتاب حدث خلاف فى الرأى بين أم كلثوم وبينى . ما زال الخلاف قائما ..

ولكننى أؤمن بأننى إذا كنت معجبا حقا بأحد .. فيجب أن أعبر عن هذا الاعجاب وأنا واقف على قدمى ..

ان أم كلثوم نجحت فى اشياء كثيرة .. سوف تسجل الصفحات القادمة جزءا منها ..

وفشلت أم كلثوم فى أشياء قليلة ، سوف تسجل الصفحات القادمة معظمها ..

ولكن .. يبقى فى النهاية شىء واحد . لقد فشلت أم كلثوم فى شىء أكبر من هذا كله : فشلت فى أن تكون امرأة عادية ! ..

بهذا السطر أعلن انسحابى مؤقتا .. حتى أجلس فى مقاعد القارىء لصفحات .. من مذكرات أم كلثوم . مذكرات منها وعنها . مذكرات إلى صديقى المجهول « م » .. ميم .. نقطة . مليون مستمع - مائة مليون مستمع - يعشقون أم كلثوم !

● محمود عوض



القاهرة ٣٦

« فى القاهرة غناء للرجال .
وغناء للنساء .
فى القاهرة موسيقى للفقراء وموسيقى للأغنياء . .

القاهرة .

١٩٢٦ .

البيضة فى مصر بمليم .

رطل اللحم بقرشين . مشفى بثلاثة قروش .

علبة السجاير ماركة « العنبرول » بقرشين .
الأوتوموبيل الفاخر خمسة محلات بـ ٣٦٠ جنيها .
الرواية المقررة على طلبة البكالوريا هى زهراب ورستم .
على أفندى الكسار بربرى مصر الوحيد يمثل رواية البربرى فى الجيش .
نابغة مصر فى التمثيل يوسف وهبى يقوم ببطولة رواية الذبائح .
المستر سمسون رئيس النيابة المختلطة بالمنصورة يحضر حفل مدرسة المنصورة الأميرية .
و . . نحن فى سنة ١٩٢٦ . .
السكان فى القطر المصرى كله عددهم محدود . بالضبط ١٢ مليونا و ٢١٧ ألف نسمة . من بين كل مائة من السكان فى مصر هناك ٢٦ يموتون بعد سنة من مولدهم . المرض وسوء التغذية سبب ذلك .
الذين يعرفون القراءة والكتابة فى مملكة مصر ـ مجرد القراءة والكتابة ـ عددهم ١٩٧ فردا فى كل ألف من السكان .
الصحف فى مصر محدودة . الأخبار فيها محدودة أيضا . منها تلك العناوين المنشورة فى مقدمة هذا الفصل .

من الأخبار التى تبرزها مجلة « اللطائف المصورة » أيضا . خبر يقول « . . يشاع أنْ الحكومة المصرية تنوى فتح نفق من السيدة زينب إلى محطة باب الحديد لمرور سكة حديد حلوان تحت الأرض بعد أن تتحول قاطراتها من بخارية إلى كهربائية » . ان الزحام سبب فى هذا المشروع . بطء القطارات سبب آخر . ان السفر بالقطار من القاهرة إلى الاسكندرية يستغرق سبع ساعات . لهذا يسمون القطار « المستعجلة » !

نفس المجلة تنشر على عرض صفحة كاملة منها صورة كتبت تحتها قائلة « هذه صورة أتحفنا بها المصور الشهير الخواجة زولا لحضرات أعضاء لجنة الاحتفال بتكريم فخامة المندوب السامى جورج لويد واللادى قرينته بصفته ممثلا لانجلترا صديقة مصر ، الذى نحيى فيه رسول السلام بين الشعبين » !

هذه واحدة من مظاهر كثيرة لتفسخ المجتمع المصرى فى تلك الفترة . فبعد ثورة عظيمة قام بها الشعب سنة ١٩١٩ بدأت مصر تحارب نفسها . . بينما يتفرج عليها محتل غاصب وحاكم مستبد .

ولقد أدى انتكاس الثورة إلى تفشى ظواهر مرضية فى المجتمع المصرى . .

فالانتهازيون والوصوليون منتشرون فى الحياة العامة . لخصهم سيد درويش منذ سنوات عندما غنى فى اوبريت « العشرة الطيبة » علشان ما نعلى ونعلى ونعلى . . لازم نطاطى نطاطى نطاطى !

والصراع دائر علنا بين الاحتلال ومجموعة من المثقفين الشبان أنتجتهم ثورة ١٩١٩ منهم طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد ومحمد حسين هيكل ، وفكرى أباظة .

والشكوى عامة من الانحلال الأخلاقى . بسببها نشرت المجلات صورة لـ « . . نفر من أعضاء جمعية الشرف التى تاسست فى القاهرة لنشر الفضيلة ونصح الشبان بالابتعاد عن الرذيلة » .

والرذيلة لها جمهور واسع يغذيها .

من هذا الجمهور الجنود الانجليز الذين يمرحون فى شوارع مصر ويسهرون لياليها . أماكن السهر تنحصر بين ميدان الأوبرا فى القاهرة

وبين شارع عماد الدين والفجالة . فى شارع عماد الدين تستطيع أن تشرب البيرة والويسكى . اذا أردت « العرقى » فاتجه إلى الفجالة . « البوظة » فى شارع كلوت بك . على امتداد هذه الشوارع تستطيع أن تقرأ هذه اللافتات « خمارة مانولى » ، « بار خريستو » ، مقهى « كوستى » ، بار « بنايوتى » خمارة « خرالمبو » .

واذا سرت فى شارع محمد على تجد على يمينك وعلى يسارك دكاكين صغيرة علقت على جدرانها آلات الطرب من عود ورق ودربكة فوق الدكاكين اعلانات بأسماء أصحابها من أهل الفن . « الأسطى حميدة » مثلا . عوادة . « الأسطى زوبة » . عالمة . « نعيمة المصرية » أرتيست .

داخل هذه الدكاكين توجد فئة من المتعهدين تسمى « المطيباتية » أن « المطيباتى » يتفق مع الزبائن ويقتسم الأجر . وفى ليلة الفرح يرتدى الملابس المزركشة ويضع خاتما فى أصبعه . وطوال غناء « العالمة » فان المطيباتى مسئول عن استمرار آهات المعجبين من الجمهور فى كل مكان من السرادق .

اذا وصلت إلى شارع عماد الدين فسوف تجد كازينو دى بارى .. مسرح البرنتانيا . مسرح الأجبسيانا . الرينسانس . الأبى دى روز الكوزمو . . ثم . . مسرح رمسيس .

هنا تجد نوعا آخر من أهل الفن والطرب والموسيقى .

ان فى القاهرة موسيقى للفقراء . . وموسيقى للأغنياء .

فى القاهرة غناء للرجال . . وغناء للنساء .

فصاحب الفرح . . عندما يكون ثريا . . فانه يدعو نوعين من المطربين . . مطربا له وللوجهاء . وآخر للجمهور العادى .

● ان مطرب الأغنياء يرتدى بدلة . وهو صييت معروف باسمه الشيخ حامد مرسى . . اسماعيل سكر . . عبد اللطيف البنا . . الخ .

ومطرب الفقراء يرتدى الجلباب . انه صييت معروف بصفته . من هؤلاء مثلا : فرقة الخضرى ، والقهوجى ، وحسين المكوجى ، وشحات الحلوانى . . الخ .

● مطرب الأغنياء يحيى الليلة الرئيسية . ليلة الزفاف .

ومطرب الفقراء يحيى الليالى السابقة على الزفاف .

● وعندما يغنى مطرب الأغنياء يستأجر الثرى ماكينة كهرباء . فالمدعوون كلهم وجهاء . أما عندما يغنى مطرب الفقراء فان صاحب الفرح يستأجر كلوبات غاز .

● واذا اجتمع المطربان فى ليلة واحدة فان مطرب الاغنياء يغنى فى الحفل . بينما الآخر يغنى فى الاستراحة !

● مطرب الأغنياء متفرغ للغناء . ومطرب الفقراء غير متفرغ . لا يستطيع . . ولذلك كان من الشائع أن يعمل بأكثر من حرفة . . من بينها الغناء أو التلحين . فنجد فى شوارع القاهرة لافتة كتب عليها « بائع يانصيب وسجاير . . ومغنى » . لافتة أخرى « ملحن أناشيد ومقرىء مدائح نبوية ومشخص » . لافتة ثالثة « حانوتى ومقرىء ومشخصاتى » . رابعة « دار الجيلاتى والتشخيص والتلحين » ! .

وعندما بدأت أم كلثوم تغنى فى القاهرة فلقد كانت ما تزال تنتمى إلى الدائرة الثانية : صالح عبد الحى يغنى فى ليلة الفرح ، وهى تغنى فى الليالى السابقة على الفرح . هى نفسها تأتى إلى الفرح راكبة ، ثم تعود بعد الفرح سيرا على الأقدام . هى نفسها فقيرة ، تغنى المدائح النبوية . ترتدى العقال على رأسها وبالطو ازرق على جسمها . ملابس متواضعة . وما زال عليها أن تحارب لكى تدخل الدائرة الأخرى المغلقة : دائرة المطربين المشهورين أو نصف المشهورين . ان عليها ان تفعل ذلك مع الانخفاض الشديد فى الإحترام الذى يعطيه المجتمع لأهل الطرب .

ان كلوت بك مثلا قدم صورة حية لذلك عندما سبق أن سجل فى كتابه « وصف مصر » يقول : « . . والمغنون المصريون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية .. مفرد آلاتى . وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق .. اذا جىء بهم إلى منازل الخاصة تقاضوا أجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات إلى أربعة فى الليلة الواحدة . والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة من محض كرمهم شيئا من المال يضاف إلى تلك الأجرة الزهيدة . وتقدم اليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيره . وهم يفرطون فى شربها . ويحدث أحيانا وقد

لعبت الخمر بعقولهم أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الأرض . وفى مصر مغنيات يسمين بالعوالم ، وهى كلمة أطلقها الأوربيون على جميع الراقصات من غير تمييز ولا استثناء » .

ان كلوت بك يصف الغناء والموسيقى فى مصر خلال القرن التاسع عشر . ومع ذلك فحتى هذه السنة ـ ١٩٢٦ ـ كانت النظرة إلى الفن عموما لم تتغير بعد كثيرا .

فعندما بدأ توفيق الحكيم يكتب للمسرح فى القاهرة خلال العشرينات وصفه أحد أصدقائه قائلا انه « . . منخرط فى زمرة أهل الفن والعياذ بالله » ! . من مذكرات توفيق الحكيم .

وعندما عبر المرحوم زكريا أحمد لأبيه عن رغبته فى العمل بالغناء والتلحين قال له والده الشيخ أحمد صقر مرزبان « بقى يا ابنى تبقى من عيلة مرزبان . . وتطلع من بتوع ياليل ياعين ؟ ! » . . مذكرات زكريا أحمد

وهذه النظرة لم تقتصر على الشخص العادى . . بل هى ممتدة إلى الحكومة أيضا . ان تطوير ورعاية الفن ـ هذا رأى الحكومة ـ هو من اختصاص وزارة الأشغال ! انه كرصف الطرق وبناء الجسور والترع !

وعندما نشرت الصحف فى سنة ١٩٢٦ خبر ايفاد أول بعثة فنية مصرية قالت « أوفدت الحكومة المصرية فى العلم الماضى أول بعثة لدراسة التمثيل مكونة من فرد واحد هو زكى أفندى طليمات الموظف بوزارة الأشغال » .

ووزارة الأشغال هى التى أشرفت على اقامة أول مسابقة فنية فى سنة ١٩٢٦ . وكانت الجوائز الأولى فيها من نصيب : زكى رستم فى التمثيل التراجيدى . بشارة أفندى يواكيم فى التمثيل الكوميدى . . السيدة فيكتوريا موسى فى التمثيل الكوميدى للسيدات . و . . السيدة منيرة المهدية فى الغناء المسرحى .

ان منيرة المهدية هى سيدة الغناء فى مصر منذ سنوات طويلة مضت . . إلى جانبها توجد السيدة نعيمة المصرية . السيدة توحيدة . السيدة فتحية أحمد . الآنسة أم كلثوم !

وإلى جانب هؤلاء توجد من الممثلات : فيكتوريا كوهين وشقيقتها

هنرييت كوهين ، مارى منصور ، دوللى انطون ، رتيبة رشدى وشقيقتها فاطمة رشدى ، دولت ابيض ، أمينة رزق ، وابريز ستاتى .

ان انتشار الأسماء الأجنبية فى الوسط الفنى سببه أن الفتاة فى مصر لم تكن قد دخلت بعد باب التمثيل على نطاق واسع . بل ان فرقة دار التمثيل العربى ، عندما قدمت للجمهور رواية « بنت الشهبندر » سنة ١٩٢٦ - فانها أسندت دور المرأة فيها إلى الممثل حسن فائق . ونشرت له مجلة « المسرح » صورة (براقة) بضفائر الشعر الطويلة والروج الفاقع .

والصحف نفسها كانت تنشر بين وقت وآخر صور الممثلات اللامعات . . فى أزياء الرجال ! مرة تنشر صورا لزينب صدقى وفاطمة رشدى بالطربوش والبدلة . ومرة تنشر صورا لفاطمة اليوسف وبديعة مصابنى وعزيزة أمير وأمينة محمد وفتحية أحمد فى ملابس (الأفندية والخواجات) ! .

و . . نحن فى سنة ١٩٢٦ .

ان المظهر الرئيسى للاهتمام بالفن هو الصحف . ان الصحف والمجلات خصصت عددا من أكبر كتابها لنقد الحركة المسرحية والغنائية والموسيقية . محمد التابعى يكتب عن المسرح فى (الأهرام) . . التوقيع «حندس » . ابراهيم المصرى يكتب فى مجلة « التمثيل » . زكى طليمات فى « المقطم » . عبد المجيد حلمى فى « المسرح » . سعيد عبدة فى روز اليوسف . . الخ .

ولكن النقد لم يكن أمرا سهلا . ان أحد النقاد كتب كلمة خفيفة عن تمثيل السيدة مارى منصور . . ولكن « السيدة لم تر رأيه » ، فارسلت وراءه نفرا من أصحابها ليلقوا عليه درسا فى فن الكتابة . . وليبرهنوا له على أن العصا اقوى حجة من « القلم » !

صحفى آخر . . « هددته ممثلة فى مسرح كبير بالشبشب فى الطريق العام ، والقت عليه محاضرة طويلة عن أصله وأصل آبائه وأجداده » !

ناقد ثالث كتب مقالا عن رواية « قمر الزمان » انتقد فيه بشدة السيدة منيرة المهدية . ثم « . . . اضطر بعدها إلى أن يحمل شومة فى يده

أينما سار ليدافع بها عن نفسه ـ رأيه ـ ضد فتوات عماد الدين الذين أرسلتهم وراءه السيدة ليتفاهموا معه » .

ان السيدة منيرة تمثل وتغنى . .

والاتجاه فى الغناء كان متذبذبا . فبعد نهضة قصيرة فى المسرح الغنائى مثلها سيد درويش . . بدأ الغناء يبتعد عن التواشيح ولكنه يقترب من الخلاعة . ان أحد الشعراء قدم مرة قصيدة شعرية طويلة إلى كامل الخلعى لكى يلحنها فصاح فيه الخلعى قائلا :

كيف يمكن تلحين ذلك ؟ هذا شريط ترمواى وليست قصيدة !

أما الأغانى المنتشرة فكانت تختلف .

مثلا . . الأغنية المشهورة التى ألفها يونس القاضى وغناها عبد اللطيف البنا تقول : ارخىَ الستارة اللى فريحنا . . أحسن جيرانك تجرحنا !

هذه الأغنية تستطيع سماعها فى مقاهى القاهرة مثل : اللاوندية وأسماء الكمسارية . أو ـ بالاسكندرية ـ فى مقهى شيبان او مقهى اليأس .

أغنية أخرى تقول : مين فيكو بابا مين فيكو ماما . . مش عارفة نينة من غير علامة !

أغنية ثالثة فى مقهى الالدرادو تقول : أوعى تكلمنى بابا جاى ورايا . .

تغنيها عزيزة المصرية .

أغنية رابعة يطلبها « السمعية » تقول :

ماتخافش عليا أنا واحدة سجوريا .

فى العشق يا انت واخدة البكالوريا .

واذا سرت خطوات أخرى فى شارع عماد الدين فسوف تسمع أغنية الموسم :

ايه اللى جرى . . فى المندرة

شىء ما افهموش . .

أنا كنت لسه صغيرة !

وكان الجمهور يعبر عن اعجابه بالطرابيش . ان قذف الطربوش هو

أقوى وسائل التعبير عن الاعجاب عند جمهور ١٩٢٦
والطرابيش تملأ جميع مسارح القاهرة .
والطرابيش تملأ مسرح « الرينسانس » بشارع فؤاد (أقيمت مكانه فيما بعد سينما ريفولى) :
وتملأ « تياترو ماجستيك » بشارع عماد الدين ، حيث تعرض رواية « الطمبورة » .
وتملأ أيضا مسرح رمسيس ، الذى يعرض رواية « حانة مكسيم » .
وتياترو حديقة الأزبكية حيث تعمل فرقة عكاشة .
ودار الطرب الجديدة ـ صالة بديعة مصابني ـ بشارع عماد الدين . اعلانات الصالة تقول أن السيدة بديعة قد « خصصت مقاعد للسيدات بعيدا عن الرجال . . حفظا لكرامتهن » !
وتياترو برنتانيا ، حيث يقدم جوق السيدة منيرة المهدية الرواية الجديدة « البريكول » وتلحين كامل أفندى الخلعى . خارج التياترو تقول الاعلانات « تقوم بالدور المهم في الرواية السيدة منيرة المهدية سلطانه الطرب وكروانة مصر الوحيدة وبلبل وادى النيل » ! اعلانات أخرى تقول « الليلة تغنى السيدة منيرة المهدية . دكتوراه ممتازة في الغناء والطرب بين العالم الشرقى جميعه » !
في داخل المسرح تسمع منيرة المهدية وهى تغنى . عندما تغنى يقف خلفها « المذهبجية » أو « السنيدة » ، الذين لا ينطقون ولا يتحركون الا بقدر . . وفي الوقت الذى تريده « الصييتة » !
ومنيرة المهدية بدأت العمل في صالة الالدرادو ، حيث كان الذهب يتدفق من العمد والأعيان . وقد أصبحت بعد قليل تلقب بـ « سلطانة الطرب » ، حتى لقد كان يجتمع في بيتها مجلس الوزراء . . واذا غضب منها أحد رؤساء الوزارات . . كانت تصالحه باغنية « تعالى يا شاطر نروح القناطر » . ويصطلح رئيس الوزراء . . ويذهب إلى القناطر !
ان هذا المستوى من الأغاني كان قد اضطر سيد درويش ـ قبل سنوات من وفاته ـ إلى أن يجاريه عندما لحن وغنى : الاستيك فوق صدرك يضوى . و : يا انا يا أنت يا واد يا مأطاط !
وهذا المستوى من الخلاعة هو الذى اضطر سيد درويش أيضا أن

يلحن منذ سنوات روايات كشكش بك التى كان نجيب الريحانى يقوم ببطولتها .

هنا بالضبط يقول توفيق الحكيم فى كتابه « سجن العمر » : كان الاقبال على كشكش بك يعادل الاقبال على الكباريهات . ولم يكن سر رواجه فى الحقيقة الا تلك الراقصات الجميلات الشقراوات الاجنبيات الوافدات علينا من الخارج عقب الحرب الأولى مثل « دينالسكا » ومثيلاتها ممن قذف بهن الجوع من بلاد منهزمة كالنمسا وألمانيا . . فجئن إلى مصر المفتوحة يومئذ لكل من هب ودب . فملأن المسارح والحانات وقاعات الليل . وكان الشباب من الوارثين يقبلون على تلك المحال جميعا لمصاحبة الفتيات آخر الليل . وكان الواحد منهم يحضر الرواية الواحدة للريحانى كل ليلة ، لا حبا فى الرواية نفسها ـ التى سبق أن شهدها مرات ـ ولكن من أجل سيقان الفتيات .

حسنا . .

هذه هى السنة التى قررت فيها أم كلثوم أن تستقر بالقاهرة . وهذا هو نوع من الجمهور الذى تشهده مسارح ومقاهى القاهرة سنة ١٩٢٦ .

هل تختار أم كلثوم هذا النوع جمهورا لها ؟ هل تغنى له . ما تخافش عليا أنا واحدة سجوريا ؟

هل تفعل أم كلثوم كذلك ؟

سنرى من منكرات أم كلثوم . .

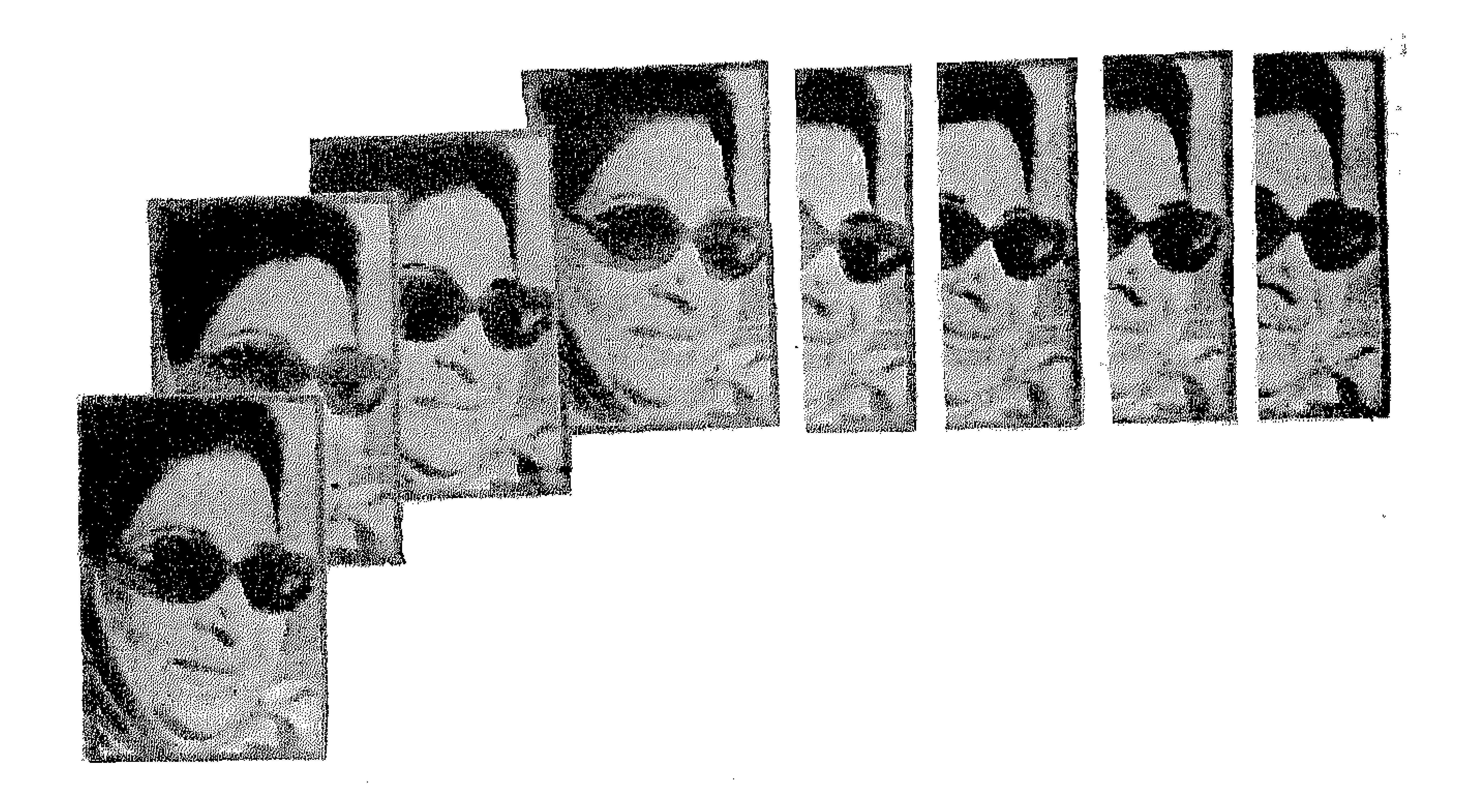


تعلمت منه التواضع

و تعلمت منه الصدق

و تعلمت منه الايمان بالله

أم كلثوم



من مذكرات أم كلثوم :

صفعني أبي ليرضى الجمهور . . !

« ليس مهما أن أكون مطربة من الدرجة الثالثة . المهم ألا أبقى في الدرجة الثالثة »

أم كلثوم

كانت القاهرة عندما بدأنا نستقر فيها سنة ١٩٢٦ كالمريخ . كل شيء فيها نكتشفه لأول مرة . كل شيء فيها مختلف عما رأيناه من قبل .. البيوت مختلفة .

الشوارع مختلفة . السهرات مختلفة . الناس مختلفون . والجمهور مختلف .

في الريف كان صاحب الفرح يأتي الينا مباشرة - إلى ابى - للاتفاق على الغناء .

ولكن في القاهرة لابد من وجود متعهد الحفلات .

ان المتعهد هو الذى يتفق مع الجمهور من ناحية ، ثم هو الذى يتفق مع المطرب أو المطربة من ناحية أخرى . . ويعد له مكان الغناء ، ويتولى الدعاية له بين الجمهور .

وفي البداية عانينا كثيرا من التعامل مع متعهدى الحفلات . كان أبى طيب القلب خالص النية في تعامله . وكان العمل في القاهرة يتطلب صفات مختلفة . ويظهر أن منظر ابى كرجل ريفي . . ومنظرى كفتاة صغيرة . . بالعقال والبالطو . . يظهر أن هذا كان يغرى متعهدى الحفلات أحيانا بالضحك علينا .

في البداية مثلا كان صديق أحمد متعهد الحفلات يحضر في الصباح للاتفاق مع ابى على أجر الغناء . الاتفاق يقضى بأن يدفع لى سبعة جنيهات .

وعندما نذهب إلى صالة الغناء في المساء . . فلن صديق أحمد كان يدخلنا إلى المسرح لنجلس خلف الستارة نستعد . ويبدأ صديق أحمد في الشكوى لأبى قائلا : يا خسارة ! مفيش جمهور ! شوف الصالة فاضية ازاى ؟!

وعندما يتطلع أبى إلى الصالة من خلف الستار . . يجد أن الصالة خالية من الجمهور فعلا . لأن صديق أحمد تعمد أن يحضرنا قبل موعد الجمهور بساعة أو بساعتين !

والحل ؟ !

كان الحل ينتهى دائما بنجاح المتعهد في تخفيض الأجر المتفق عليه من قبل في الصباح . فبدلا من سبعة جنيهات يصبح الأجر خمسة أو أربعة جنيهات !

ويوافق أبى بحسن نية ، بينما المتعهد يتمتم بصوت مسموع : ربنا يسهل بقى وما اخسرشى أكثر من كده ! !

وعندما نبدأ في الغناء بعد ساعة أو ساعتين . . عندما يفتح الستار . . نفاجأ بأن الصالة قد أصبحت مزدحمة بالجمهور الذى لا يجد مكانا !

ونبحث عن المتعهد فنجده . . فص ملح وداب ! !

● ● ●

على أن هذه المشكلة بدات تختفى عندما بدأ أبى شيئا فشيئا يكتسب الخبرة في التعامل مع متعهدى الحفلات بحيث لا ننخدع منهم بهذه السهولة .

بدأت المشاكل مع المتعهدين تختفي ، لتحل محلها مشاكل أخرى . . مع الجمهور نفسه !

كان الجمهور في البداية لا يأتى لكي يسمع غناء . انه يأتى أولا لكى يسلى نفسه . يسهر وينبسط ويفرفش . . ويسكر !

واذا سمع مطربا . . فالغناء لابد أن يتمشى مع مقتضيات السهرة . . يعنى لزوم الفرفشة !

لهذا السبب فان موجة الطقاطيق الخفيفة ـ الخليعة غالبا ـ هى التى كانت رائجة في تلك الأيام !

لم يكن هذا لوننا . كنت ما أزال أغنى المدائح النبوية . . والقصائد . . وأصمم على التمسك بهما .

ولكن هذا التصميم خلق لى مشاكل كثيرة فى القاهرة .

أذكر اننى كنت فى احدى الليالى ـ سنة ١٩٢٦ ـ اغنى فى كازينو البوسفور .

ان كازينو البوسفور كان يقع فى ميدان المحطة ـ ميدان باب الحديد حاليا ـ بالقاهرة ، وكان رسم الدخول للسهر فى الكازينو خمسة قروش . .

فى تلك الليلة بدأت أغنى ـ كالعادة ـ فى الساعة العاشرة مساء .

ولم تكن هناك آلات تصاحبنى فى الغناء ، كان أفراد التخت هم أربعة ، منهم أبى وأخى خالد ، وكنت ما أزال ارتدى العقال والبالطو الأزرق . . وأغنى المدائح النبوية والقصائد .

وبدأت فى تلك الليلة أغنى : سبحان من أرسله رحمة لكل من يسمع أو يبصر . .

وبعد قليل بدأ أفراد الجمهور يطلبون منى أن أتوقف عن الغناء وأن أغنى لهم الأغانى السائدة فى تلك الفترة . أغانى خليعة . .

ان الأغانى المنتشرة فى تلك الفترة كانت فى منتهى الخلاعة ، إلى درجة أن أغنية « بعد العشا . . يحلى الهزار والفرفشة » مثلا تعتبر أغنية غير خليعة بمقاييس تلك الأيام ! وكان من المألوف أن يقوم أكثر من مطرب أو مطربة بغناء نفس الأغنية . .

المهم . . طلب منى هؤلاء الأفراد من الجمهور أن أغنى شيئا آخر بدلا من قصيدة ! سبحان من أرسله رحمة .

ورفضت . .

استمررت فى الغناء ! سبحان من . .

فى هذه اللحظة بدأت تعلو أصوات نفس الأفراد من الجمهور لكى ترغمنى على ألا استمر . .

بعد قليل بدأوا يصفرون لمقاطعة غنائى .

ومرة أخرى استمررت فى الغناء . .

ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحد . لقد وقف أفراد منهم وهجموا على المسرح يريدون إغلاق الستار ، فى هذه اللحظة فقط بدأت أفقد أعصابى .

كانت المسألة هى أن القادم إلى الكازينو فى هذا المساء . . يعلم مقدما من التى ستغنى ، فالاعلان المعلق فى الخارج يحمل اسمى .

وهو يعلم أيضا لون الغناء الذى سيسمعه . . فهو اللون الذى كنت أقدمه . .

ويعلم أن الأغانى الخليعة التى يريدها لها أماكن أخرى تغنى فيها . . .

فما معنى هذا الصفير . . ؟ !

المهم . . اننى لحظتها ثرت عندما هجموا على المسرح يحاولون اغلاق الستار . .

فى الواقع اننى شتمت هؤلاء الأفراد من الجمهور . .

ولم أنتبه الا وأبى يصفعنى بيده ! . .

كانت أول مرة أتلقى فيها مثل هذه الصفعة من أبى ، أول مرة يصفعنى فيها أمام الجمهور . .

وبكيت ! . .

بكيت لأننى على حق . . وأبى يعلم ذلك .

ولكن أبى كان على حق أيضا . . لقد كان أوسع منى ادراكا .

ان أبى ضربنى أمام هؤلاء الأفراد الثائرين من الجمهور . . لكى يرضيهم ! لكى يهدىء من ثورتهم ! لقد رأى الشر فى أعينهم وهم يهجمون على المسرح متجهين نحوى . .

وخشى أبى أن يحدث لى مكروه . خشى أن يؤذيالأفراد السكارى ، فتطوع بمعاقبتى عنهم . كما أنه أراد أن يلقننى درسا فى الأدب ! فمهما كانت الظروف ، لا يجوز لى أن اشتم واحدا من الجمهور . لا يجوز لى أن أتفوه بلفظ نابى واحد . حتى ولو كان معى الحق فى ذلك . .

و . . . .

انسحبت من المسرح فى تلك الليلة . . أجر دموعى ! . .

●●●

والواقع أن هذا النوع من الجمهور لم يكن يقتصر وجوده على القاهرة . كان هذا النوع موجودا فى كل مكان . معنى ذلك أن مقاومة تيار الأغانى الخليعة لم يكن أمرا سهلا ، ولا حتى أمرا ممكنا دائما وربما

كان جزءا كبيرا من المجهود الذى بذلته فى البداية . . موجها لمقاومة اغراء الهبوط إلى المستوى السائد من الأغانى الخليعة . .

وفى البداية لم يكن يمر شهر ـ ولا حتى أسبوع ـ الا تواجهنى مشكلة بسبب عدم غنائى لهذا النوع من الأغانى .

بل ان تصميمى هذا كاد يكلفنى حياتى فى احدى المرات !

كنت أغنى فى احدى القرى . .

وبالتحديد كانت قرية تقع بجوار بلدة ميت العامل فى مركز أجا بمحافظة الدقهلية .

مكان الغناء هو دوار العمدة . دوار واسع . الجمهور يملأ الدوار . من هذا الجمهور وجوه أعرفها من قبل . فلقد كانت المرات العديدة التى غنيت فيها من قبل قد بدأت تشجع هذا اللون من الغناء الذى كنت أقدمه ، ولكن إلى جانب جمهورنا هذا كان يوجد النوع الآخر من الجمهور . النوع المألوف . . الذى جاء ليشرب الخمر ويستمع إلى أغانى « بعد العشا . . يحلى الهزار والفرفشة » ! كان هذا الجمهور يمثل أقلية بسيطة جدا فى الريف . . ولكنه كان موجودا على أى حال . .

فى تلك الليلة بدأت أغنى قصيدة « سبحان من أرسله رحمة . . لكل من يسمع أو يبصر » . .

دقيقة وأخرى . .

ثم وقف واحد من الجمهور يصيح : ايه الغم ده . . عايزين نفرفش ! . .

واستمررت فى الغناء ! .

ولكن نفس الشخص عاد ليقف من جديد : عايزين نفرفش . . عايزين شوية مياعة . . شوية مواويل . . غنى لنا يا ليل يا عين !

ولم التفت اليه ، ما زلت مستمرة فى الغناء . .

ولكنه استمر فى مقاطعته لى

وعندما حاول عدد آخر من الجمهور أن يسكتوه تكهرب الموقف لقد وقف الرجل المخمور وسط الدوار وأخرج من جيبه مسدسا ولوح به فى الهواء مهددا ! .

قال الرجل مهددا الجمهور بالمسدس ! اللى مش عاجبه يطلع بره !

وفى لحظات كان الصمت يخيم على المكان كله . صمت له رنين !
ونظرت إلى الدوار الواسع فوجدته قد أصبح خاويا . . لا أحد على الكراسى ! الجمهور الذى كان يتزاحم منذ لحظة . . ذاب !
ويبدو أن هذا الرجل كان صاحب سطوة فى القرية دون أن ندرى . .
لقد اكتشفنا فيما بعد انه ابن العمدة ! واحد من أصحاب النفوذ فى أى قرية ! . .
المهم ـ صمم ابن العمدة بمسدسه على أن أغنى له ما يريد . .
وصممت على الا أغنى سوى ما أريد . .
وتوزعت نظرات أبى بين وجه ابن العمدة . . وبين مسدسه . . وبينى ! . .
قال له أبى : معلهش يا ابنى . . هدى نفسك ! . .
ورد ابن العمدة : لازم تغنى يا ليل يا عين . لازم تعمل لنا شوية انبساط وفرفشة ! . .
فقال له أبى : فرفشة ايه يا ابنى بس وانت شايل لنا المسدس !
— هو كده ! . .
قال أبى : حاضر يا ابنى . . حتغنى . . حتغنى كل اللى انت عايزه ، بس هدى نفسك . . غنى له يا بنتى . . أمرنا لله !
وصممت على ألا أغنى ! . .
لم يكن تصميمى عن شجاعة . . فالمسدس على بعد متر منى .
ولكن تصميمى كان عن عناد . . وعن ايمان . .
وبدأ المسدس يتململ فى يد الرجل وهو يقول بكلمات تلاعبت بها الخمر : يعنى ما بتغنيش ؟ !
ورد أبى بسرعة : حتغنى يا ابنى . . اصبر عليها بس . . صبرك بالله ! . .
و . . . .
انقذتنا عناية الله . .
ففى تلك اللحظة دخل إلى الدوار واحد نعرفه . صاحب عزبة مجاورة للقرية . . جاء فى هذه الليلة ليسمعنى بالصدفة . . عندما علم فى طريق عودته اننى أغنى هذه الليلة فى تلك القرية .

ولم يحس ابن العمدة المخمور بالرجل . . الا بعد أن خطف منه المسدس وأوسعه ضربا ! . .

● ● ●

وأعود إلى القاهرة . .

ان الجمهور المخمور كان أقلية فى الريف . ولكنه كان أغلبية يحسب لها ألف حساب فى القاهرة . والمسألة كالحلقة المفرغة . . لا تدرى من أين بدأت ، هل العيب فى مستوى الأغانى . . أم فى انتشار نوع معين من الجمهور .

وعلى أى حال فلقد كان الدرس الذى خرجت به مبكرا هو الا أيأس ، هو أن اصمم على نشر اللون الذى كنت اغنيه ، ولم يكن يدفعنى هذا إلى التعصب لما أغنيه . . وانما تطوير ما أغنيه بحيث يكون مقبولا ، وبشرط الا اضحى بالمستوى الذى أؤمن به فى الغناء . .

شيئا فشيئا بدأ حظى يتحول . .

فى الواقع أن رصيدى السابق من الشقاء والتعب فى الريف بدأ يصبح ميزة كبرى انفرد بها ، فحتى تلك الفترة لم اكن قد أصبحت معروفة بشكل حاسم فى مدينة القاهرة . كان رصيدى كله فى الريف . لقد غنيت فى مئات من القرى والكفور والنجوع والمدن الصغيرة ، بحيث اصبح الجمهور الذى يعرفنى جمهورا آخر ، غير الذى تعرفه ليالى القاهرة . .

● ● ●

ان هذه الظاهرة سببت الحيرة لشركات تسجيل الأسطوانات .

ان أول أسطوانة سجلتها كانت اغنية « مالى فتنت بلحظك الفتاك » . اغنية لحنها لى أحمد صبرى النجريدى . وسجلتها شركة أسطوانات « صوت سيده » بالقاهرة . ان الشركة سجلت لى هذه الأسطوانة وهى تقدر مقدما أنها صفقة خاسرة . لهذا لم أتقاض من الشركة أكثر من ثمانية جنيهات . . هى كل مستحقاتى عن حقوق تسجيل الأسطوانة .

ثم فوجئت الشركة بانها حققت فى الأسطوانة أرباحا ضخمة . . مع أن ثمن الأسطوانة كان عشرة قروش !

كيف حدث ذلك ؟ اننى لم أكن معروفة بعد لجمهور القاهرة . . فمن هو الجمهور الذى اشترى تلك الأسطوانة ؟

كانت المسألة ببساطة هى اننى اتميز عن مطربات القاهرة بالجمهور الذى يعرفنى فى الريف . وعندما ياتى واحد من هذا الجمهور إلى

القاهرة فمن الطبيعي انه سيشترى أسطوانة للمطربة التى سمعها ورآها . . خاصة وانه لم تكن هناك اذاعة بعد ، ولم تكن مطربات القاهرة المشهورات فى ذلك الوقت يذهبن إلى الريف . لم يكن الاعجاب بصوتى اذن هو سبب رواج الأسطوانة ، ولكنه كان مجرد حب الاستطلاع . .

وشيئا فشيئا بدأ رصيدى يزداد من جمهور القاهرة . . وبدأت شركات الأسطوانات تضاعف أجرى عن كل أسطوانة . . ولكن المسألة لم تكن أبدا بمثل السهولة التى أكتب بها الآن . كانت هناك منافسة ، وهى منافسة حادة غالبا . . ولم أكن أعرف بعد أحدا من كتاب صحف القاهرة . ومع ذلك فان مواقف الصحف والمجلات فى هذه المنافسة كانت تختلف ..

أذكر انه فى مايو سنة ١٩٢٦ نشرت احدى المجلات تعليقا يقول : « للسيدة منيرة المهدية أنصار ، وللآنسة أم كلثوم أنصار . . وكل من الطرفين يدعى أن صاحبته هى ذات الصوت الأجمل . ولكن ، من هو الحكم الذى يحكم بالأولوية لهذه أو تلك ؟ هو الجمهور ولا شك . . والآن أسمع . . تدفع شركة بيضافون للسيدة منيرة المهدية أربعين جنيها مقابل كل أسطوانة تملأها السيدة . . وتدفع شركة أسطوانات « صوت سيده » للآنسة أم كلثوم خمسين جنيها مقابل كل أسطوانة تملأها الآنسة ! . . ومعنى هذا ان اقبال الجمهور على شراء أسطوانات أم كلثوم أشد من اقباله على شراء أسطوانات السيدة منيرة . . ولهذا نجد أسطوانات الآنسة أغلى ثمنا من أسطوانات السيدة » . .

انتهت كلمات المجلة . . انها بلا شك تعطى صورة عن تلك الفترة من سنة ١٩٢٦ .

ولكن . .

لم يمض أسبوع واحد آخر الا وحدث تصرف غريب . . من نفس المجلة !

● ● ●

ان المنافسة الغنائية فى سنة ١٩٢٦ كانت قد تبلورت بحيث تركزت فى النهاية بين منيرة المهدية وفتحية احمد . . وبينى .

وقد أرادت المجلة المذكورة ـ هكذا قالت ـ أن تصل إلى راى قاطع فى هذه المنافسة . قالت المجلة : « ثارت فى الأيام الأخيرة ضجة حول

الغناء والمطربات . . أيهن أجمل صوتا وأيهن أعمق فنا وأعذب نغمة وأسمى روحا وأدق تصويرا . . الخ . فكتب كاتب فى (البلاغ) فى هذا الموضوع ، وقام ثان فى (الأهرام) وثالث فى (السياسة) . . وكان مدار كل هذه المقالات هو السيدة فتحية أحمد والمقارنة بينها وبين الآنسة أم كلثوم ، والخروج من هذه المقارنة بتفضيل الأولى على الثانية . . وتعرض البعض للسيدة منيرة المهدية ولم يحترم درجة الامتياز التى نالتها فى مباراة الغناء المسرحى (أجرتها وزارة الأشغال) فقام ووضعها هى أيضا على المشرحة . أما سوى هؤلاء مثل السيدات نعيمة المصرية وتوحيدة وفاطمة سرى وفاطمة قدرى فلم يعرض لهن أحد بكلمة . ولهذا رأينا أن نقوم باستفتاء حضرات القراء ، وأن نقصر الاستفتاء على هؤلاء المطربات الثلاث اللاتى يدور حولهن الأخذ والرد ، وهن السيدات أم كلثوم وفتحية أحمد ومنيرة المهدية . .

« وموضوع الاستفتاء هو :

« أولا : من الأجمل صوتا بين هؤلاء المطربات الثلاث .

« ثانيا : من هى التى يؤثر فيك صوتها أكثر من سواها ؟ و(ويؤثر فيك) معناها هنا (يشجيك) . .

« ثالثا : من هى الأكثر الماما بفن الغناء . .

« رابعا : اذا فرضنا أن هؤلاء المطربات الثلاث كن يغنين فى ليلة واحدة فى أماكن مختلفة . . فأيهن تفضل أن تذهب لسماعها » .

هذا ما نشرته المجلة . .

وفى الأسبوع التالى مباشرة قامت بنشر النتيجة . .

كانت النتيجة ـ كما نشرتها المجلة ـ هى أن ترتيب المطربات هو :

أولا : فتحية أحمد . .

ثانيا : منيرة المهدية . .

ثالثا : أم كلثوم !

ومهما كانت الدوافع وقتها وراء اخراج النتيجة بهذا الشكل ، الا أننى فى الواقع صدمت من سيطرة الصداقات الشخصية على الصحفيين المتصلين بالوسط الفنى .

لم أكن اختلط بأحد الكتاب أو الصحفيين . لم أكن أهتم الا بتطوير

صوتى وغنائى . ما زال هذا رأيى إلى اليوم . برغم الصعوبات التى خلقها هذا الأسلوب أمامى . .

ولكن المهم اننى اعتبرت أن النتيجة التى نشرتها المجلة صحيحة . . فلتعتبرنى المجلة مطربة من الدرجة الثالثة . . لا يهم . ولكن المهم هو ألا أبقى فى الدرجة الثالثة !

ان مثل هذه الأشياء كان من الممكن أن تكون بالنسبة لى حافزا على اليأس ، بحيث أعود إلى الريف من جديد .

وكان من الممكن ان تكون حافزا لى على بذل مزيد من الجهود ، بحيث أبقى وأستمر وأعمل . .

وهذا ما حدث . .

أصبحت أعتبر أن المشاكل ليست صعوبات . . وانما هى تحديات . . المشاكل ليست أعذارا عن الكسل . . وانما هى مبررات للعمل . .

وفعلا .

لم يمض وقت طويل قبل أن أقرأ أول مقال أمين عنى كتبه صاحبه قبل أن يرانى . .

لقد نشر المقال وقتها فى جريدة (السياسة) . . وكان كاتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق .

هذا هو أول مقال صحفى أعتز به فى حياتى الفنية . . وما زلت حتى اليوم أشعر نحوه بوفاء بالغ .

ولم تمض فترة أخرى حتى كنت قد بدأت فعلا التقى بحظى . .

لقد بدأ حظى يتحول مع اغنية « ان كنت أسامح وانسى الأسية » . .

هذه الأغنية اشترى الجمهور منها نصف مليون اسطوانة !

ولكن سعادتى بدأت تتضاعف بعد ذلك بعدة سنوات عندما كنت بالاسكندرية جالسة فى كازينو بالشاطبى . . امام الكازينو كباريه . .

فى هذا المساء لم أصدق أذنى ! لقد سمعت مطربة تغنى فى الكباريه قصيدة أبا الزهراء !

ليلتها . . لم أنم حتى الصباح !

لم أنم من فرط سعادتى . لقد أصبح الجمهور مقتنعا بسماع « أبا الزهراء قد جاوزت قدرى » . . حتى فى كباريه ! تطور لا يمكن تقديره فى رأيى بأى مبلغ من المال ! . .

● ●●

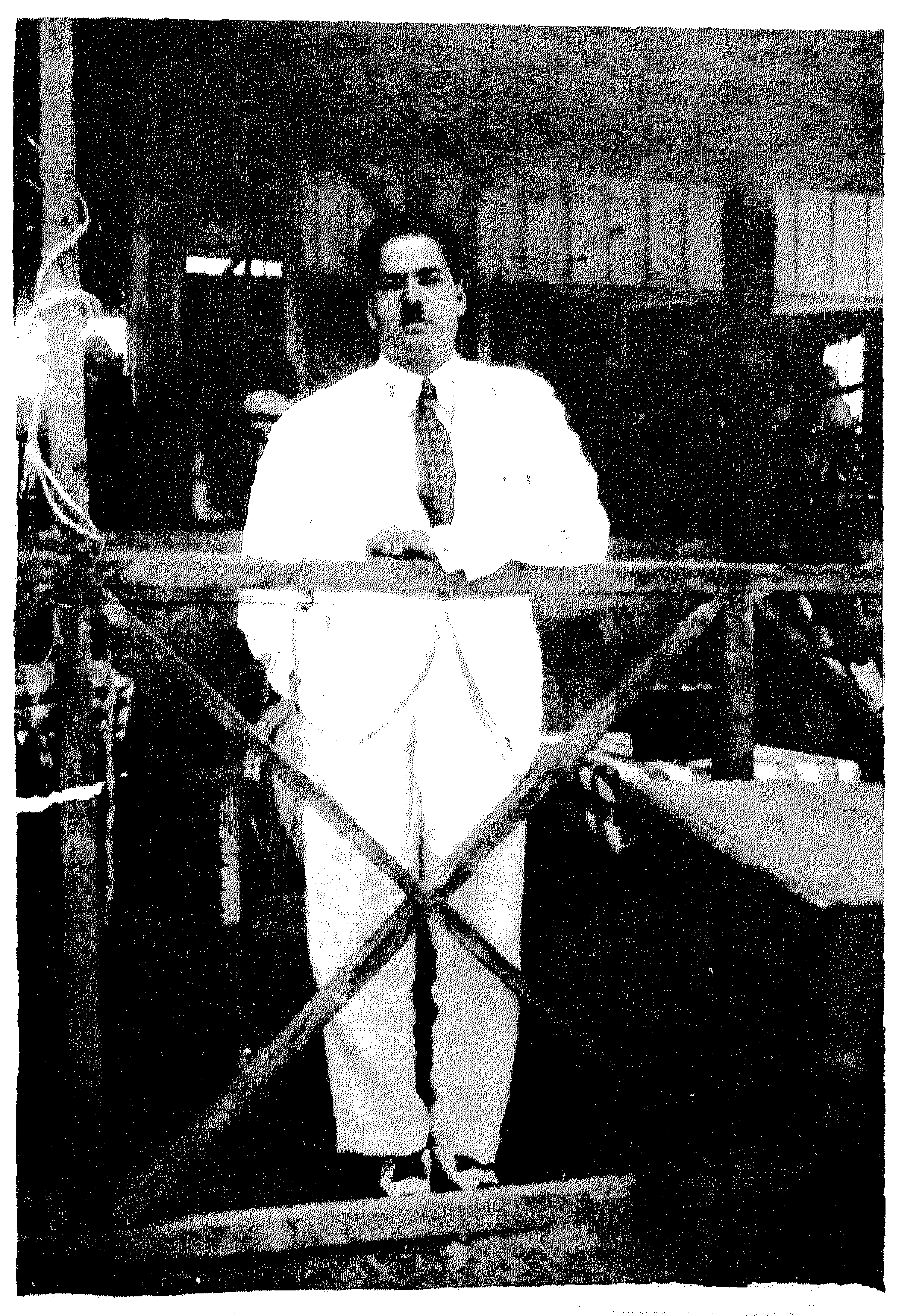




أم كلثوم تعزف على العود - صورة لها فى سنة ١٩٢٦



الشيخ إبراهيم ـ والد أم كلثوم



خالد .. شقيق ام كلثوم فى سنوات شبابه وهو يستحم فى رأس البر . ان وفاته سبب لأم كلثوم اقصى أزمة نفسية عرفتها فى حياتها ..





أم كلثوم مع العود - صورة كانت
تحتفظ بها لنفســها



من مذكرات أم كلثوم :

أمى . . وأبى والشيخ أبو العلا !

اضطرت إلى الغناء أربع ساعات . . دون أن يسمعنى أحد غير مائتى كرسى . . كراسى لا يجلس عليها فرد واحد . . كراسى سمعتنى فى صمت بليغ ! » .

أم كلثوم

كانت أمي سيدة بسيطة جدا !

لم تكن تعرف القراءة أو الكتابة . . لم تكن متعلمة . . ولكنها كانت مثالا للسيدة التى تعرف كيف تقوم بواجبها نحو زوجها ونحو أولادها . .

لهذا لم يتزوج أبى غيرها !

ولم تكن هذه عادة مألوفة فى الريف ، ولا حتى فى أسرتى نفسها . . كان لى ثلاثة أعمام تزوج كل منهم مرتين أو ثلاثا . .

ولكن أبى كان يقدر فى أمى حكمتها وبساطتها وتفانيها فى تربيتنا .

لقد تعلمت منها التواضع .

وتعلمت منها الصدق .

وتعلمت منها الايمان بالله .

كنا نستيقظ فى الفجر على صوتها ـ مع أبى ـ وهى تؤدى الصلاة .

ولم نرها فى مرة تختلف مع أبى بصوت مسموع .

ولم نسمعها تناديه بغير « يا شيخ ابراهيم » .

وكانت أمى تساعد أبى بكل ما تستطيع . بل أن أبى عجز مرة عن أن يجد نقودا تكفى لشراء « كيلة ذرة » . . مشكلة . . ولكن أمى نهضت لتجمع كل مصوغاتها وتعطيها لأبى حتى يشترى لنا الذرة فنجد ما نأكله . . و ـ يا دوب . . كان ثمن المصوغات يكفى لشراء كيلة الذرة !

لم تكن أمى تهتم بالنقود . . حتى عندما بدأنا نستقر فى القاهرة وندخر جزءا من دخلى . . كانت تقول : ان النقود تفسد !

وفى كل مرة كنت أسافر فيها مع أبى للغناء كانت تكرر له نفس المحاضرة « . . والنبى يا شيخ ابراهيم تاخذ بالك من البنت . . أوعى حد يقول لك هاتها نسلم عليها فى البيت وتوافق . اوعى تسيبها لوحدها . خلى عينك عليها . أولاد الحرام كثير » !

وعندما بدأنا نستقر فى القاهرة لم تكن تنام الا بعد عودتى من الغناء فى الفجر . .

● ● ●

وأمي كانت بسيطة في فهمها لوسائل التربية كنا صغارا أشقياء ـ أنا وأختي وأخي ـ بحيث لا يمر يوم دون أن نلعب بأدوات المنزل فنكسر بعضها أحيانا . .

ولكن أمي كانت تقول لنا : « . . اللى يكسر حاجة وييجى يقول لى ياخد السبعة » !

ان « السبعة » هى سبع كراملات !

وكانت تقول لنا : « اللى يسرق حاجة . . ربنا يسخط وشه يخليه وش حمار » !

ولكنني في مرة حاولت أن أسرق أمي !

لم تكن هي في المنزل . منزلنا المتواضع بقرية « طماى الزهايرة » في مركز السنبلاوين . ثم مر في القرية رجل يبيع غزل البنات .

وتسابق أطفال القرية إلى الرجل لشراء غزل البنات .

وزاغت عيني . . أريد غزل البنات !

ودخلت إلى المنزل . . ومددت يدى إلى جيب أحد أثواب أمي ، فوجدت فيه نصف فرنك .

أخذت نصف الفرنك ، وخرجت أجرى إلى بائع غزل البنات .

ثم توقفت عن الجرى فجأة . .

تحسست وجهي . . تذكرت أن الله سيحول وجهي إلى وجه حمار كما كانت أمي تقول لنا !

وعدت إلى المنزل ، ثم أعدت النصف فرنك إلى مكانه . . وخرجت من جديد أتفرج على الأطفال وهم يشترون غزل البنات . .

ولكن منظر غزل البنات أغراني من جديد باعادة المحاولة . . فعدت إلى المنزل . . لأجد أمي قد عادت من الخارج . .

في هذه اللحظة لم أتنبه الا وأنا أعترف لها بكل ما فعلت !

استمعت أمي إلى اعترافي بارتياح كبير وهي تقول : الحمد لله . قالتها كما لو كانت قد انقذت وجهي فعلا من التحول إلى وجه حمار . . !

ثم أعطتني هي النصف فرنك لأشترى منه غزل البنات !

● ● ●

وكانت أمي تحب شهر رمضان جدا . . وطوال الشهر لم نكن نسمع سوى آيات القرآن والأحاديث النبوية . .

وعندما أصبح لنا منزلنا الخاص في القاهرة كانت ترفض أن تقوم « الشغالات » بخدمتنا ونحن على مائدة الافطار . . كانت تصر على أن نجلس جميعا - جميع من في المنزل - لتناول الافطار معا . .

وكانت تربي أولاد أختي بنفس الطريقة .

لم تكن توافق على خروجهم لاستذكار دروسهم بعيدا عن البيت . وطوال مذاكرتهم كانت تصر على أن تظل ساهرة لخدمتهم .

وكانت ترفض أن تغتاب أحدا ، أو تتكلم عن أحد بسوء .

في الواقع انها كانت سيدة عظيمة .

فبفضلها هي تحولت طفولتنا من أيام شقية إلى أيام سعيدة . من أيام فقيرة . . إلى أيام غنية . .

ان طفولتي لم تختلف عن طفولة الكثيرين من ابناء بلدي . أن الطفولة قد تقترن في أذهان الكثيرين باللعب ، بالحنان ، بالمرح ، بالعروسة الحلاوة ، بالجنيه العيدية .

ولكنني عندما أتذكر طفولتي تقفز إلى ذهني أشياء كثيرة : البرد المطر ، الفقر ، الطرحة السوداء ، الشاي التقيل ، الجبن القريش ، الثروة التي كانت قرشا ، العظام التي كانت لحما ، الركوبة التي كانت حمارا ، الحنان الذي كان أبي ، الرحمة التي كانت أمي .

أتذكر أبي - رحمه الله - حينما كان يواجه مشكلته الوحيدة كل شهر : كيف يوفق بين مرتبه الشهري - الذي كان مجرد عشرين قرشا كما قلت من قبل - وبين أعباء أسرة كاملة أصغرها أخي خالد وأنا . وعندما أدخلني أبي الكتاب ، كانت المشكلة هي من أين يأتي بالقرش الصاغ الذي كان يجب أن يدفعه كل أسبوع لفقي الكتاب .

أتذكر هذا كله عندما أتذكر طفولتي . أتذكر أياما فقيرة بسعادة ، شقية بفخر .

فمع تقدم سنوات طفولتي تركزت حياتي في ثلاثة أشياء .

لقد كانت الأسئلة الثلاثة التي تشغلني في كل لحظة من تلك الأيام هي :

أولا - هل أجد طعاما ؟

ثانيا - هل أجد مأوى ؟

ثالثا - هل . . . أغنى ؟

فى تلك الأيام ، كان كل شيء فى حياتى يدور حول تلك الأسئلة الثلاثة .
حياتى نفسها كانت حصيلة لتلك الأسئلة الثلاثة . عندما كنت أعمل ، آكل ، أنام ، أقرأ ، أسير ، أركب ، اشترى ، أسافر ، اسمع ، اتعلم . .
فان هذا كله كان يتم بهدف واحد : أن أغنى بطريقة أفضل . أن أفهم فى وقت اقل . ان أنقل عواطفى لمستعمى بشكل أرق . .
كانت هذه هى حياتى . . منذ اليوم الذى بدأت اتعلم فيه الغناء وعمرى خمس سنوات ، إلى اليوم الذى بدأت فيه التقى باعجاب الجمهور . .
على انني وراء كل نجاح حققته، كنت اتذكر دائما شخصا واحدا هو صاحب الفضل فيه .
هذا الشخص هو : أبى !
كان أبى رجلا فقير الثقافة . . معدم الثروة . ولكنه أعطانى اكبر ثروة . أعطانى حنانه . أعطانى اهتمامه . أعطانى اصراره على أن أنجح . . وأن اتعب قبل ان انجح .
ان ابى علمنى درسا هاما . علمنى أن النجاح ـ وليس ثمن النجاح ـ هم المهم .
ولقد تعلمت من أبى اشياء كثيرة . . غير مجرد الغناء !
كان أبى يتمسك دائما بأن يؤدى واجبه . فى الواقع أن ضميره كان فى حالة صحوة مستمرة . وبسبب يقظة ضميره هذه ، اضطررت مرة إلى الغناء فى حفل عام . . بلا جمهور ! اضطررت إلى الغناء أربع ساعات . . دون أن يسمعنى أحد غير مائتى كرسى ، كراسى لا يجلس عليها فرد واحد . كراسى ظلت تسمعنى لمدة أربع ساعات فى صمت بليغ !
حدث هذا فى سنواتى الغنائية المبكرة فى الريف .
لقد اتفق صاحب الفرح مع ابى على أن اذهب إلى الغناء فى قريته بمركز السنبلاوين . وأعطى لأبى أجرى عن الغناء : خمسين قرشا . .
وفى الليلة المحددة ركبت الحمار سبع ساعات قبل ان اصل إلى القرية .
وعندما دخلنا القرية وجدنا السرادق معدا ، والكلوبات مضاءة . .
ولكن بلا جمهور !

لم يكن هناك شخص واحد . . ولا - حتى - صاحب الفرح !

لقد تصادف أن الجو فى تلك الليلة كان فى منتهى البرد . ليلة من ليالى شهر امشير ! . وفضل الناس آلا يغادروا بيوتهم . « . . حيسمعوا مين يعنى ؟ ! صالح عبد الحى . . والا عبد اللطيف البنا » ؟ ! !

وذهب أبى إلى صاحب الفرح ليعيد اليه الخمسين قرشا . . ولكن صاحب الفرح رفض . قال لأبى « . . يا سيدى كأنها زكاة » ! قالها وانصرف !

واسقط فى يدى . .

ماذا أفعل ؟ !

وكان رد أبى : لازم تغنى !

— اغنى لمين ؟ !

— مش مهم . . لازم نخلص ضميرنا !

— صح . . ولكن مفيش ناس . . مفيش ولا حتى واحد أغنى له

— برضه مش مهم . . لازم نغنى ونؤدى واجبنا !

— وفعلا !

وقفت أغنى فى هذا الحفل . . دون أن يسمعنى أحد

ولكنها كانت ليلة ممتعة ! انها الليلة الوحيدة التى غنيت فيها بالريف . . دون أن تقاطع الخناقات غناءنا !

فبدلا من أن يكون محصول الليلة ثلاث ساعات خناق ونصف ساعة غناء - كما كانت العادة - أصبحت الليلة غناء فقط . ولكن بلا جمهور ! !

● ● ●

وكان أبى بسيطا فى حرصه على اعطائى مظهر المطربة الكبيرة . وانا غير مشهورة بعد !

فبعد سنوات من مطلع حياتى الغنائية . . استطعنا ان نستبدل بركوب الحمير ركوب القطارات . . فى سفرنا للغناء بالقرى والمدن الصغيرة .

ولكننا كنا ما نزال نركب بالدرجة الثالثة فى القطار .

وقبل أن يصل القطار إلى البلدة التى سنغنى فيها بدقائق ، كان أبى يصر على أن نغادر مكاننا فى الدرجة الثالثة . . وننزل إلى المحطة من باب

الدرجة الأولى . . حتى لا يرانا أصحاب الفرح خارجين من باب الدرجة الثالثة ، فيتصوروا أننى مطربة صغيرة !

● ● ●

وعندما جئنا إلى القاهرة أول مرة أصر على أن نسكن فى فندق جوردون هاوس بشارع فؤاد . فندق غال . ويصر على أن يأتى لنا الطعام جاهزا من محل « سان جيمس » . . الذى كان من أغلى محلات القاهرة .

فى الواقع ان أبى كانت تدفعه فكرة رئيسية . . وهى الحرص على اعطائى كل مظاهر النجاح . وكان فى سبيل ذلك ينفق كل دخلنا . .

فعندما كنا نسافر إلى الاسكندرية للغناء ـ بعد سنوات طويلة من عملى ـ كان أكبر مبلغ أتقاضاه فى ذلك الوقت هو خمسة عشر جنيها .

وفى اليوم السابق على السفر كان أبى يأخذنى إلى محلات « هانو » بالاسكندرية لكى أشترى فساتين جديدة بكل الخمسة عشر جنيها . . ثم يدفع بعد ذلك أجر السفر إلى الاسكندرية من جيبه !

وعندما انتقلنا من السكن فى شارع قوله بحى عابدين فى القاهرة . . أصر على أن نسكن فى شقة فاخرة بعمارة بهلر فى حى الزمالك . شقة تضم سبع حجرات وثلاثة حمامات ، ثم طباخا لاعداد الطعام . شقة غالية ايجارها خمسة وعشرون جنيها ، وهو مبلغ مرتفع جدا فى ذلك الوقت ، ويمثل عبئا ماليا باهظا بالنسبة لنا .

● ● ●

وكان والدى واسع الأفق بعيد النظر رغم تعليمه المحدود الذى اقتصر على تعلم القرآن وترتيله . وبعض التدريبات التى كان بفطرته يصر على أن أقوم بها . . تبينت فيما بعد انها تطبق فى مدارس الكونسرفاتوار الحديثة .

فمثلا . .

كان أبى يصر على أن أتناول أطعمة معينة ومشروبات معينة . . منها مثلا مشروب عبارة عن خليط من البيض النىء وسكر النبات واللبن الساخن .

وكان يصر على أن أنام مبكرا ، وأستيقظ مبكرا . . فى الأيام التى لا يكون عندى فيها غناء . .

وكان يصر على أن أمارس يوميا بعض الألعاب الرياضية اللازمة لتوسيع الصدر واطالة الأنفاس . لقد أحضر لى مثلا « صاندو » بسلك

واحد فى السنة الأولى ثم سلكين فى السنة الثانية ثم ثلاثة . . وهكذا
ولذلك فان كتفى الآن أعرض من المقاس العادى لجسمى . .
وكان أبى لا يألو جهدا فى تعليمى . .

فبمجرد أن بدأنا نستقر فى القاهرة ، وبدأنا نقيم فى شارع قولة بحى عابدين أحضر لى أبى الأستاذ محمود رحمى لكى يعلمنى العزف على العود . كان رحمى من أحسن المتخصصين فى العزف على العود . وكان أبى يطلب منه أيضا أن يدربنى على غناء أكبر عدد ممكن من التواشيح . . لا لكى أغنيها ، بل لكى تكون أرشيفا غنائيا أحتفظ به فى عقلى .

وكان محمود رحمى يظل يدربنى طوال النهار فى حضور أبى . وكان أبى يدفع له ثلاثة جنيهات كل شهر ، وهو مبلغ مرتفع بمقاييس تلك الأيام .

وكنت حتى تلك الفترة ما أزال أغنى وأنا أرتدى العقال !

وكان أبى هو صاحب فكرة ارتدائى العقال عندما بدأت أغنى فى الريف .

كان يرى أولا أن العقال زى جاد يناسبُ ما كنت أغنيه من القصائد والمدائح النبوية .

ويرى ثانيا أن منظر فتاة تغنى ليس منظرا مألوفا فى الريف . فالعقال والبالطو الأصفر هما حل وسط فى رأيه .

ولكن هذه الأسباب لم تعد ضرورية عندما بدأت استقر فى القاهرة ، لأن منظر فتاة تغنى كان شيئا مألوفا فى القاهرة .

وأبى كان أول من تحمس عندما فكرت فى التخلى عن الغناء مع التخت القديم واستبدل به الغناء على الآلات الموسيقية . فحتى سنة ١٩٢٦ ، لم تكن هناك موسيقى تصاحبنى فى الغناء . كان يقف معى على المسرح أربعة فقط فى زى المشايخ ، منهم أبى وأخى خالد .

وكانت هذه الطريقة لها معجبوها الذين يتزايدون كل يوم . ولكنى كنت أريد أن أتطور .

والأهم من ذلك أننى أريد أن أتطور بارادتى ، قبل أن أكون مرغمة على التطور .

وقلت لأبى أننى أفكر فى الغناء على الآلات الموسيقية .

وتحمس أبى . ولكنه أصر على نقطة هامة . قال انه لا يريد أن تكون المسألة تطورا والسلام . وانما يجب أن يكون هذا التطور قويا . . لا يريد أن يصاحبنى « تخت » موسيقى والسلام . . وانما يجب الا يكون هذا التخت مماثلا لتخت العوالم !

وفعلا ، دفع أبى أكبر ما يمكنه لكى يحقق فكرته .

لقد بدأت أغنى بمصاحبة أوركسترا لأول مرة فى مساء الخميس ٧ أكتوبر سنة ١٩٢٦ . وكانت أول أوركسترا موسيقية اتفق معها أبى تضم الأساتذة محمد العقاد ، وهو من أمهر عازفى القانون وقتها ، والأستاذ سامى الشوا على الكمان ، والأستاذ محمد القصبجى على العود .

وفى أول ليلة غنيت فيها مع الأوركسترا نجحت التجربة نجاحا هائلا . ودفع لى صديق أفندى متعهد الليالى خمسين جنيها عن الليلة الأولى فقط ، ثم وقع معى عقدا بدفع خمسة وثلاثين جنيها عن الليلة بعد ذلك .

وكان أبى يدفع الكثير لتنفيذ اصراره على الاستعانة بأحسن الموسيقيين .

كان يدفع لمحمد العقاد ثلاثة جنيهات ونصف جنيه عن الليلة الواحدة . ولسامى الشوا جنيهين ونصف جنيه ، ولمحمد القصبجى جنيهاين . فى الواقع أن الصحف أجمعت وقتها على تسمية هؤلاء الثلاثة بـ « أساطين الموسيقى الشرقية » .

فى الواقع أن هذه ـ وغيرها كثير ـ كانت تؤكد حقيقة كبيرة كنت ألمسها من أبى ، وهى اصراره الدائم على أن أنجح دائما . . مهما تحملنا من تكاليف . اصراره على أن التطور لا يكفى أن يكون مجرد تطور .. بل من الضرورى أن يكون نظورا إلى الأحسن . . والا فلا داعى له !

● ● ●

ولكنى مع هذا كنت أختلف مع أبى فى بعض الأحيان !

لقد عارضت أبى مرة واحدة . عارضته بشدة . ولكنها كانت المرة الوحيدة التى صفعنى فيها صفعة ساخنة !

ذهبنا إلى البنك العقارى . .

كان البنك يبيع أرضا بالمزاد العلني وفاء لدين متعلق بهذه الأرض مساحة الأرض تزيد على مائتى فدان .
وفى المزاد قام محام من المنصورة بشراء مائة وثمانية افدنة من الأرض المعروضة للبيع .
وأراد ابى أن يشترى خمسين فدانا من هذا المحامى
ولكن الأرض كانت محملة بديون كثيرة ، وهى ديون تعطى الدائن حق تتبع الأرض فى يد اى مالك لها .
لهذا رجوت ابى ألا يشترى الخمسين فدانا الا بعد أن يسدد المحامى كل الديون المتعلقة بها ، لأن الأرض هى التى تضمن الوفاء بديونها . .
ولم يتمسك ابى بالشرط الذى طلبته منه .
ولكننى صممت على كتابة هذا الشرط فى العقد
كانت حجتى بسيطة .
ان أبى شرب نفس المقلب مرتين من قبل
فى مرة اشترى ارضا باسمى دون أن يشترط وفاء المالك الأصلى بالديون المتعلقة بالأرض . لقد اكتفى بكلمة شرف من المالك .
ان المالك وعد أبى بانه سيدفع الديون خلال عدة أشهر . واعتبر أبى أن هذه الكلمة كافية ، ثم طلب منى توقيع العقد ، فوقعت . وقبل أن تمر شهور قليلة ، فوجئنا بالحجز على الأرض وفاء للديون التى لم يسددها المالك الأول . وخسرنا الأرض . . والمال الذى دفعناه ثمنا للأرض .

● ● ●

وتكررت هذه الحكاية مرة ثانية !
لذلك ، فعندما أراد أبى ـ للمرة الثالثة ـ أن يشترى أرضا ، صممت فى هذه المرة على اننى لن أوقع العقد الا اذا نص على مسئولية المالك الأصلى فى الوفاء بالديون .
ان الأرض التى ضاعت منا مرتين من قبل كانت أقل من عشرة فدادين . .
ولكن الأرض التى نشتريها هذه المرة هى خمسون فدانا . والأهم من ذلك اننى أشفقت من أن يضيع ما ادخرناه فى عشر سنوات مرة أخرى فى غمضة عين .

ان الثمن الذى كنا سندفعه فى المرة الثالثة هذه ، كان حصيلة عملى وعمل أبى طوال عشر سنوات كاملة حتى سنة ١٩٣٥ . . حصيلة كفاح شاق وطويل استمر السنوات المبكرة من عملى الفنى . سنوات أعتز بها . وبعد هذا المبلغ كان على أن أنتظر عشر سنوات أخرى على الأقل حتى ادخر مبلغا آخر من جديد .

استمرت المناقشة تجرى بين أبى وبينى فى البنك العقارى . . وفى حضور عدد من الناس ، من بينهم مالك الأرض الذى يعمل محاميا فى المنصورة .

ولكن واحدا من الحاضرين مع المالك أثار أعصاب أبى على بدرجة كبيرة .

ولم أتنبه الا وهو يصفعنى بقسوة .

ولم أبك هذه المرة . لقد تغلب عنادى على عواطفى .

وقلت لأبى : اما الآن . . أما بعد هذه الصفعة . . فاننى لن أوقع العقد أبدا الا اذا نص على هذا الشرط ! الأن . . لن اقبل كلمة شرف من المالك . لن أقبل سوى شرط مكتوب . .

وفعلا ! .

اضطر المالك فى النهاية إلى توقيع العقد متضمنا الشرط الذى أصررت عليه .

و . . لم يفاتحنى أبى فى هذا الموضوع الا بعدها بسنة كاملة .

قال لى : لقد كان معك الحق يوم اختلفت معى بشأن الأرض . لقد ذهبت اليوم إلى بنك مصر فأخبرنى بأنه كان سيحجز على الأرض وفاء لديونها القديمة . . مما اضطر المالك السابق إلى أن يقوم بتسديد ديونه . . وأصبحت الأرض ملكا لنا من تاريخ الوفاء بالديون (١) .

● ● ●

انَ أمى وأبى هما صاحبا الفضل الأول على فى حياتى .

أما الثالث ، فهو الشيخ أبو العلاء .

---

(١) تبرعت أم كلثوم بكل اراضيها لأفراد أسرتها .

لقد تحدثت عن الشيخ أبو العلاء من قبل .
ويكفيني أن أقول أنه جعلني لأول مرة أفهم معنى ما أغنيه

عندما أقمت في القاهرة لأول مرة كنت أسكن ـ مع والدى وأخى خالد ـ في فندق جوردون هاوس ، كان للفندق شرفة تطل على شارع فؤاد .

وكان الشيخ أبو العلاء يظل يغني لي في الشرفة ، ويدربني على الغناء ، طوال الليل . لم يكن يتوقف الا في الصباح . . عندما يبدأ الترام في السير !

والحقيقة أن الشيخ أبو العلاء لم يحصل على ما يستحقه من الشهرة .

كان التيار السائد وقتها هو تيار الأغاني الخليعة . ولم يكن هذا لونه . كان أبو العلاء يصر على غناء الشعر العربي الأصيل .

وأحيانا كان الجمهور يعامله بقسوة !

لقد انزله الجمهور مرة من على المسرح في كازينو البوسفور ، لكي يستمع إلى عبد اللطيف البنا بدلا منه !

ولكن الشيخ أبو العلاء كان يتحمل هذه المصاعب . . ويضحك منها . .

وحتى عندما بدأ المرض يتردد عليه لم تختف الابتسامة من وجهه .

لم تختف ابتسامته . . حتى عندما عرف حقيقة مرضه . .

ولم تختف ابتسامته . . حتى عندما أصيب بالشلل . .

ولكن الموت كان أكبر منه . لقد هزمه في النهاية ، وسحب منه تلك الابتسامة التي لن أنساها .

مات الشيخ : أبو العلا مساء الأربعاء ٥ يناير سنة ١٩٢٧ .

لقد كان الشيخ أبو العلاء والدا ثانيا لي . ولن يقل وفائي وامتناني له ، عن وفائي لأمي . . وأبي . .

● ● ●

عند هذا الحد انتهت مذكرات أم كلثوم . من الفصل التالي تبدأ مذكرات أخرى . مذكرات « عن » أم كلثوم وليست منها ، مذكرات مني عنها .

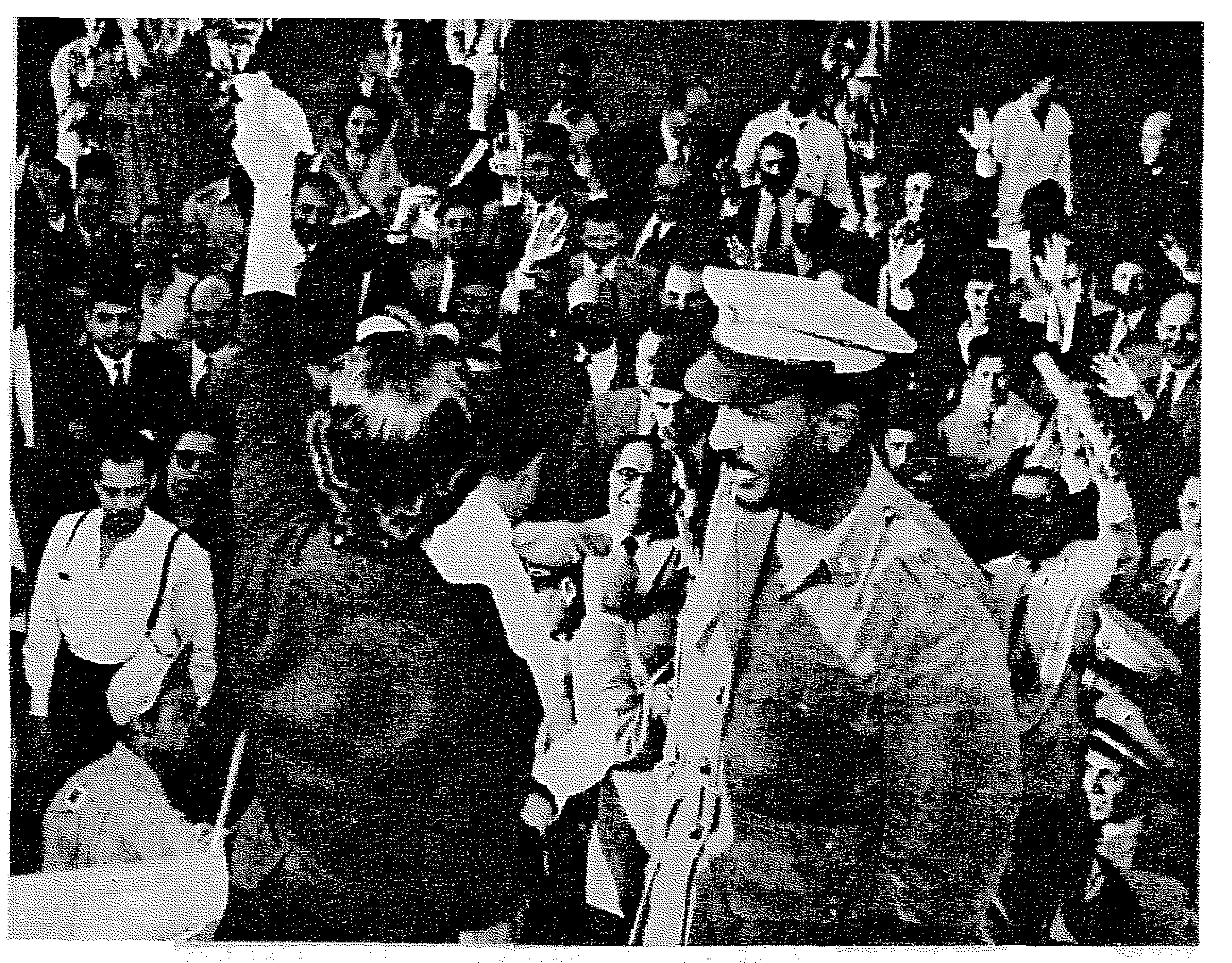
أم كلثوم فى ليلة الخميس الأول من كل شهر



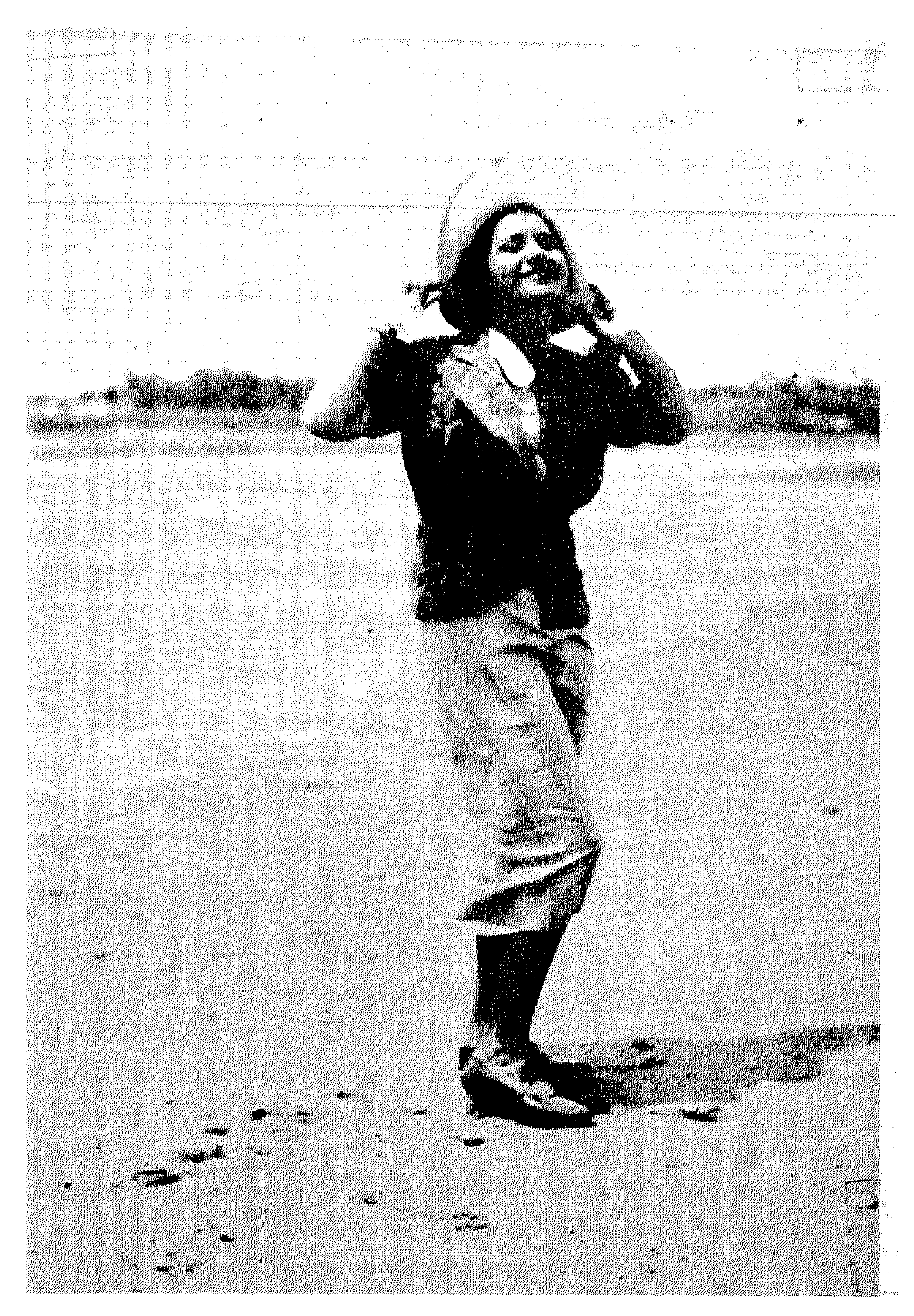
ام كلثوم تهبط من الطائرة فى الخرطوم



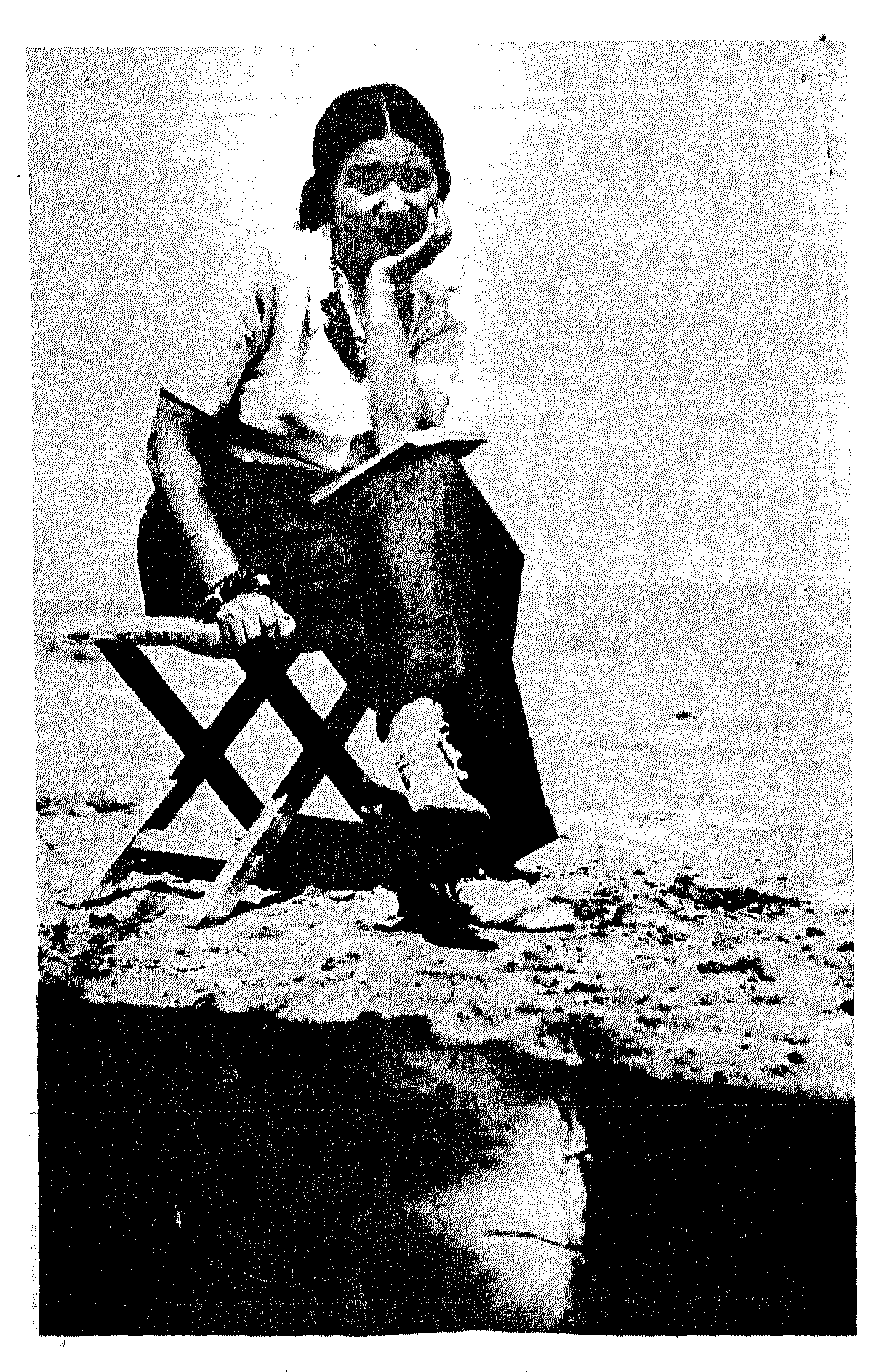
والجمهور السودانى فى أنتظار أم كلثوم



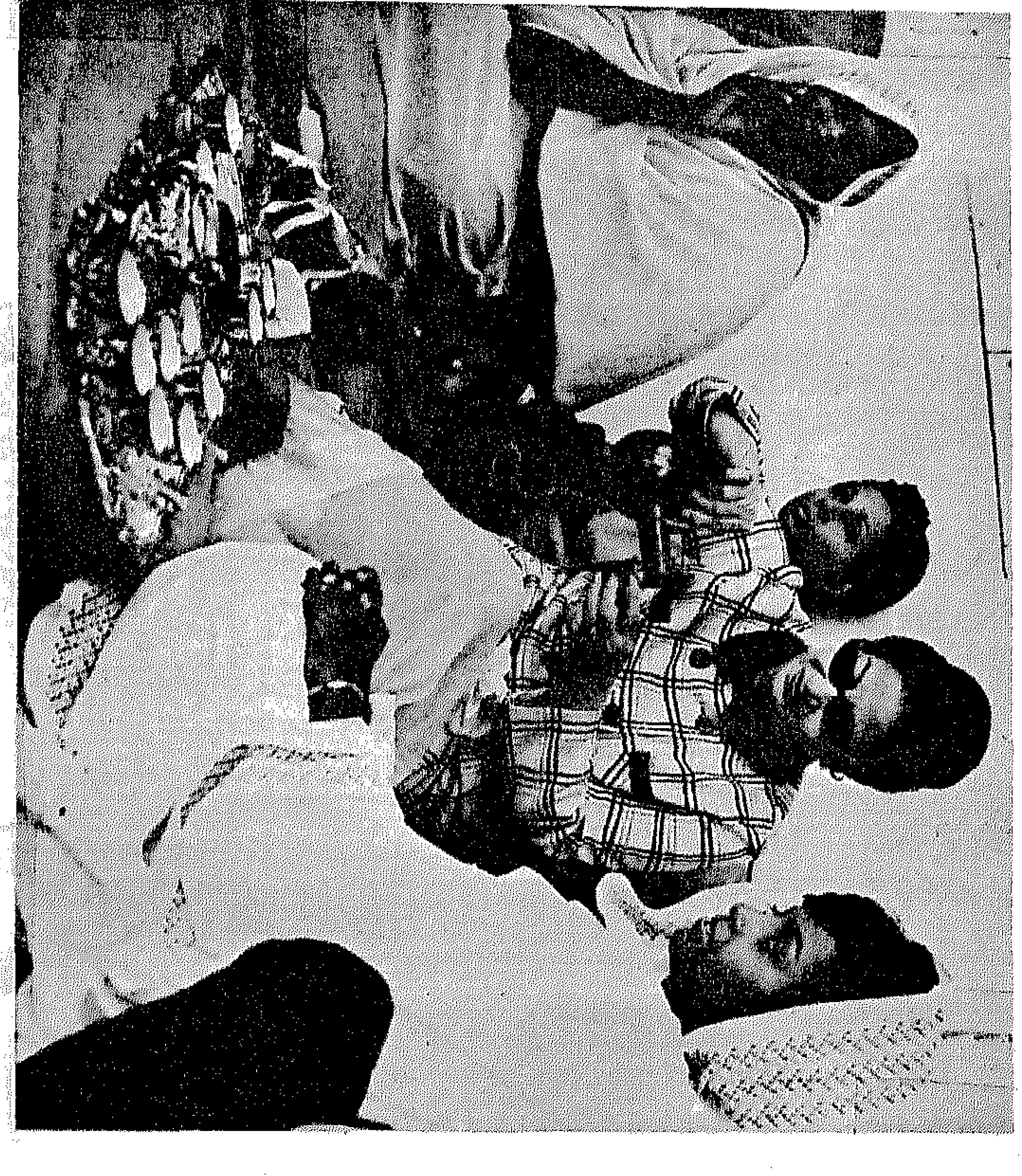
البكباشى أنور السادات مع أم كلثوم ، على سلم الطائرة قبيل سفرها إلى أمريكا للعلاج



أم كلثوم فى رأس البر



وجلسة هادئة على البلاج



ام كلثوم فى جلسة نسائية بالسودان



أمّ كلثـــــوم
التى يعرفها النـاس .. !

.. التى كانت الأرض دنياها والسماء حياتها والنجوم مستمعيها »

أم كلثوم
١٩٦٥

مساء الخميس ..
كل شخص فى مدينة طنطا يبدو خارجا من منزله .
« هذه ليلتنا الكبيرة » .. هكذا قال لى مدير الفندق قبل أن نغادره .

الناس بداوا يتحركون فى الشوارع . واحد هنا . واحد هناك . هناك كثير من الضحكات والتحيات حولنا . رجل يتمتم لزميل له فى صوت خفيض مشيرا نحونا : « .. يا ابنى دول من مصر . دول يظهر من سميعة ام كلثوم » !

لقد ذهبت إلى طنطا لأشاهد هذا الحفل كمجرد نموذج لحفلات ام كلثوم . ولكنه فى الواقع لم يكن يختلف عن اى حفل آخر لها .. إلا فى المكان ! ..

لا تكاد تمر دقيقة من الزمن ، أو مائة متر من السير ، دون أن تسمع إسم ام كلثوم على الألسن . إن مدينة طنطا بدت فى ثوب آخر وشكل آخر هذه الليلة . فرح . إن طنطا ـ من النظرة الأولى ـ قد أعدت نفسها لهذه المناسبة .

وفى هذا المساء بدأت طنطا تعبر عن عواطفها نحو أم كلثوم .. عواطف تدخرها طنطا لهذه المناسبة منذ زمن طويل مضى .. هذا واضح من كل هذه الأنوار . كل هذه الزينات . كل هؤلاء الناس .

مظاهر الفرح والزينة تقود كلها إلى مكان واحد : الاستاد الرياضى . هذا هو أضخم مكان تملكه طنطا . لهذا اختارته المدينة مكانا لحفل ام كلثوم الليلة . سرادق .. فى الهواء الطلق .. مضىء .. منظم .. واسع . خمسة الاف كرسى .

بعض الكراسى الأمامية مازال خاليا معظم الكراسى تم شغلها . الضحكات تأتى من الخلف . ضحكات يقظة . الجميع يبدو عليهم انهم استعدوا مبكرا لهذه الليلة . والجميع يبدو عليهم انهم ناموا عدة

ساعات بعد ظهر اليوم استعدادا للسهرة مع أم كلثوم .. الجميع ظلوا يدربون أنفسهم طوال النهار على الاستماع لأم كلثوم طوال الليل ! ..
داخل السرادق يتزايد عدد الداخلين .. ويقل حجم الضوضاء ..
داخل المسرح تجلس الفرقة الموسيقية خلف الستارة المغلقة . من وراء الستار تستطيع أن تسمع ذلك الالتحام المدهش للأصوات الانسانية . حول الفرقة تتصارع باقات الورود لتحتل مكانها فوق المسرح ..

ومن ركن جانبي خلف الستارة تستطيع أن ترى الجمهور : ياه .. كل هذا العدد ؟ !

إن ويليام ليرد كتب في القرن السادس عشر يقول : « ما دام الغناء طيبا بهذا الشكل .. فأتمنى من كل الرجال أن يتعلموه » .. معه الحق !
ولكن نصف جمهور الليلة نساء . إنني أستطيع بصعوبة أن أسمع خلفي سيدة تقول لزميلتها التي رأتها بالصدفة : أنت فين يا حبيبتي ؟ أيه الفستان الجنان ده ؟ طبعا اشتريته مخصوص علشان حفلة أم كلثوم . هيء .. هيء .. هيء !!

● ● ●

بعيدا عن المسرح ، والجمهور ، تستطيع أن ترى أم كلثوم وهي قادمة في الطريق . لقد دخلت من الباب الخلفي للسرادق . باب سري . باب يؤدي إلى غرفتها الخاصة في المسرح .
ومع ذلك فإن عددا من الجمهور تسلل إلى هناك في انتظار أم كلثوم . إنهم يرغبون في مصافحة أم كلثوم ، أو حتى رؤيتها . أمنية ..
خلال لحظات كان الجمهور قد تزاحم حول أم كلثوم . أين هي ؟ لا أستطيع أن أراها ..
ونظرا لأن وجيه أباظة محافظ المدينة قد تنبأ بذلك مقدما ... فقد بدأ يرجو الجمهور أن يفسح الطريق . لحظة ... ولحظة ... ثم بدأ الجمهور يستجيب للرجاء . بدأ يفك الحزام من حول أم كلثوم . وبدأت أم كلثوم تخترق هذا الحصار الجماهيري كما لو كان حزاما من الأسباجيتي !

.. ونحن في مساء الخميس .

إن أم كلثوم تقيم حفلاتها دائما يوم الخميس . لقد أصبح لديها كومة من أيام الخميس هذه . كومة تشكل رصيدها .. ويعرفها الناس

من خلالها . إن عمرها كله هو مجموع ليالى الخميس التى غنتها . حصيلة فنها كله تنفقها ليلة الخميس . فى تلك الليلة يقول لسانها سرًا « أغنى وأغنى وأغنى .. وأورى الخلايق فنى » . من أجل هذه الليلة تعيش أم كلثوم . إن الموهبة هى فن تنمية الموهبة . وموهبة أم كلثوم تتركز فى أن كل شىء فى حياتها يعمل بهدف تنمية موهبتها التى تبديها فى غنائها ليلة الخميس .

● ● ●

وعندما بدأت أم كلثوم بدأ صحفى أجنبى يستمع إليها من خلالى . قال لى : لا أدرى سر هذه العلاقة بين الجمهور وبين أم كلثوم . إنها لا تخترع . لا تبتكر . لا تخلق . إنها ليست كاتبا ، ولا مؤلفا ، ولا ملحنا . إنها مجرد سيدة تغنى . تغنى ألحان الآخرين وكلمات الآخرين ..

وقلت له : نعم . هى سيدة . وهى تغنى . ولكنها فنانة حينما تغنى . ساحرة عندما تكون فنانة . قمة عندما تكون ساحرة . متواضعة حينما تكون فى القمة . إنسانة حينما تكون متواضعة ..

أم كلثوم حينما تغنى ، فإنها لا تكون مجرد مطربة تقف أمام ميكروفون فوق مسرح بين جمهور داخل صالة وسط مدينة ..

إنها تجعل الميكروفون يتراجع والمسرح يهتز والجمهور يقفز وعينيه تسهر والبلد يرقص والفن يغنى . إنها تصنع من صوتها وعواطفها ومشاعرها شبكة ضخمة تمسك بهم ـ بمستمعيها ـ بحيث يصبح كل شىء فيهم كالآخر . كل واحد مندمج فى الآخر . نحن ، أنت ، هم ، هى ، هو . كل شىء يفقد شخصيته ويجد معنى جديدا وعواطف جديدة لمدة محدودة من الزمن ..

إن المستمع يقبل معها على الحياة فى بداية غنائها ـ رباعيات الخيام ـ حينما تنادى : « هبوا املأوا كأس الطلى قبل أن ... تملأ كأس العمر كف القدر » ..

هكذا يطرب معها الجمهور . دعوة صريحة للاقبال على الحياة والتمسك بها . الجمهور مقتنع ..

ومع ذلك ، لا تكاد تفوت ساعة ، حتى يقتنع الجمهور بشىء آخر . يقتنع بغنائها متوسلة إلى الله : « إن لم أكن أخلصت فى طاعتك ... فإننى أطمع فى رحمتك » ..

لقد رغب الجمهور فى الحياة منذ ساعة ، ثم طلب الرحمة منذ ساعة . رغب الجمهور فى الخمر منذ لحظة ، ثم استغرب ذلك بعد لحظة . استغفر الله ..

ولقد كان الجمهور مقتنعا بما غنته أم كلثوم فى كل مرة . إن أم كلثوم غنت رباعيات الخيام . وهى فى غنائها جسمت نصف الجنة ، ولكنها عادت بعد قليل تحذر بنصف الجحيم . النتيجة : خرج الجمهور بأذن مع بداية القصيدة ، وأذن مع نهايتها . خرج بعين فى الجنة ، وعين فى النار . بقلب يرغب . وقلب ـ هو نفسه ـ يرجو المغفرة . سبحان التواب الرحيم ..

وتستطيع أن تراقب الجمهور بطريقة أخرى . الجمهور يقفز فى بداية عمر الخيام . الجمهور يصيح ، يهتف ، يصفق . وفى نهاية القصيدة فإن الجمهور ما زال يصفق ، ولكن بعد أن جلس على الكراسى . إنه يصفق ، إنه يتحسر . إنه يصفق بحسرة ..

والجمهور بالنسبة لأم كلثوم هو جزء من غنائها . إن دورة رئيسى جدا .. تماما كدور الملحن والمؤلف والعازف . غناء أم كلثوم هو أحلى طرب يسمعه هذا الجمهور . وتصفيق الجمهور هو أحلى أغنية تسمعها أم كلثوم . لو لم يوجد هذا الجمهور ما كانت ستوجد أم كلثوم . ولو لم توجد أم كلثوم ما كان سيوجد هذا الجمهور . فى الواقع لا يمكن تصور أم كلثوم بغير هذا الجمهور ، ولا هذا الجمهور بغير أم كلثوم . الشىء وظله . والصوت وصداه . الشهيق والزفير . كلاهما يكمل الآخر . يفسر الآخر . جزء من الآخر ..

لقد تخصص هذا الجمهور فى سماع أم كلثوم .. ولكن الحقيقة الأخرى هى أن أم كلثوم تخصصت هى أيضا فى « سماع » هذا الجمهور ، إن أم كلثوم تحاول أن ترضى ذوق كل مستمع . بالطبع هى لا تفعل . لا تستطيع . لا يمكن . مستحيل . ومع ذلك فهى تحاول ..

إن أم كلثوم ـ قبل أن تغنى بلحظات ـ تتطلع إلى الجمهور من خلف الستار . نظرات سريعة فاحصة . مساء الخير أيها الجمهور !

كل صيحة من الجمهور لها معناها الخاص فى قاموس أم كلثوم . إنها تتعامل مع جمهورها بشفرة سرية . بكلمة . بنظرة . بإشارة بهمسة

وعندما تبدأ في الغناء فإنها تبدأ في إطلاق بالونات اختبار غنائية . آه هنا .. وآه هناك .. حذف هنا .. وإضافة هناك ..

وللحظات قليلة فإن أم كلثوم ـ بينما تغنى ـ تتبادل الأدوار مع الجمهور . هو يغنى ، وهى تستمع ! هو ـ أقصد ـ يصفق .. وهى تبتهج . وهو يحيى ، وهى تتدلل . علاقة تقوم على الايقاع . إيقاع الحياة : خذ وهات . إيقاع البحر : مد وجزر . إيقاع السماء : نور وظلام . إيقاع الرقص : هى وهو . انت في هذا الحفل تشعر بنفس الايقاع : غناء من أم كلثوم .. وتصفيق من الجمهور . خذ وهات . خذ غناء .. وهات سعادة ..

وفي هذه اللحظات .. تجد أن عينى أم كلثوم واذنيها متفرغة تماما لسماع الجمهور . إنه يهلل .. هى تتوقف . إنه يطرب .. هى تستمع . إنه يطلب التكرار .. هى تعيد . إنه يلح .. هى تعيد مرة اخرى . إنه يتذوق .. انه .. إنه يصفق لأم كلثوم ..

مرة أخرى تستمع أم كلثوم إلى التصفيق . إنها تحاول أن تصبح كالمكتشف : كل شيء أمامها له معنى ورمز .. تصبح كقبطان سفينة : يستدير دائما ليكون مع الريح . تصبح كجهاز سيسموجراف : كل هزة طرب تسجلها . تصبح ككيميائى ! إذا أضفنا كذا لكذا .. تكون النتيجة استمتاع الجمهور . تصبح كالأطباء الصينيين القدامى : تعرف كيف تقيس كل نبضة قلب ..

إن أم كلثوم بالنسبة لهذا الجمهور هى تاريخ . إنها تاريخ أسلوب كامل في الموسيقى والغناء والطرب . تاريخ ينتظر أم كلثوم حتى يطوى صفحاته . حتى ينصرف . فالغناء الفردى ـ بهذا الشكل .. بهذا الأسلوب .. بهذه الطريقة ـ والطرب الغنائى .. بهذه الآلات ، بهذا التكرار .. كل هذا كان من المفروض أن ينتهى منذ سنوات طويلة مضت .. ولكن أم كلثوم اضافت ملحقا لهذا الفصل المنتهى في تاريخ الموسيقى الشرقية . أم كلثوم أعادت الشباب للموسيقى الشرقية . هى نفسها دواء للشباب . جرعة شباب . هى نفسها أطالت انفاس هذا النوع من الغناء بعد أن تقطعت أنفاسه منذ زمن طويل ..

وأم كلثوم أنفاسها طويلة غنائيا . طويلة .. مستمرة .. مرتفعة .

إنها أيضا تجد أن الجمهور يطلب منها ما لا يقبله من غيرها . استثناء . إن الكلمات التى يقرأها الناس فى دقيقة ، ويغنيها المطربون فى عشر دقائق .. تغنيها أم كلثوم فى ساعتين . المقطع الواحد تعيده مرة ومرة و .. ثماني مرات ! فعلا ثماني مرات ، كما حدث فى أغنية « أنت عمرى » وفى كل مرة يزيد انفعال الجمهور ولا يتناقص . إنفعال لا يتناقص ، ولا يتجمد ، ولكنه يتضاعف ..

وهذا الجمهور ينقل انفعاله وإعجابه بأم كلثوم من جيل إلى جيل . وراثة . خذ مثلا ما كتبه جمال الدين حافظ عوض سنة ١٩٢٦ يقول « كانت الآنسة أم كلثوم ، وما زالت إلى اليوم ، موضع إعجاب الناس من الفنانين والموسيقيين وأصحاب الآذان السليمة . وكانت لا تحيى ليلة تنشد فيها إلا ويمتلىء المكان ويغص بالحضور . وذاع اسمها وانتشر صيتها وتهافت الأمراء والأعيان على الاستمتاع بصوتها المطرب فى حفلاتهم الخاصة »

ولو حذفت كلمة « كانت » مما كتبه جمال الدين حافظ سنة ١٩٢٦ فسوف يظل الوصف صادقا اليوم . ما زال الجمهور هو هو ، بعد أن أصبح أكبر . ما زال الاعجاب هو هو ، ولكن أضخم ، ما زال الانفعال هو هو ، ولكن أقوى ..

استمع إليها مثلا فى أى حفل عام وهى تغنى . راقب الجمهور أيضا وكيف ينفعل ..

إنها تغنى : « فات الميعاد .. وبقينا بعاد » . خسارة . إنها خسارة عاطفية شخصية لكل واحد من المستمعين ..

إذا عدت خلفا راقبها وهى تغنى : « أنا لن أعود إليك .. مهما استرحمت دقات قلبى ». حرام !

أو وهى تغنى « ما بين بعدك ، وشوقى إليك .. وبين قربك وخوفى عليك .. دليلى احتار ، وحيرنى » . مشكلة . مشكلة عاطفية شخصية يحس بها كل مستمع من هذا الجمهور ..

وإذا تقدمنا إلى الأمام فسنستمع إليها تغنى كلمات إبراهيم ناجى :

يا فؤادى لا تسل أين الهوى كان صرحا من خيال فهوى

أسقنى واشرب على أطلاله وارو عنى طالما الدمع روى

هكذا تبدأ أم كلثوم في قصيدة الأطلال . ولكنها ما تكاد تصل إلى آخر خمس كلمات حتى يصبح كل شيء حولها أطلالا . أطلال غناء . أطلال حب ، أطلال جمهور . أم كلثوم نفسها تصبح أحيانا أطلالا ! لقد رآها أحمد رامي مرة وهي تأخذ حقنة طبية قبل الغناء لكي تساعدها على الوقوف ساعة وهي تشكو ألمها ..

كل شيء يصبح أطلالا ، ما عدا عواطف الجمهور نحو ام كلثوم . إن الجمهور يعجب بها كما لم يعجب بها من قبل . وهي تغني له كما لم تغن من قبل ..

● ● ●

والجمهور يقبل من أم كلثوم ما لا يقبله من غيرها . في الواقع هي تحس أن لديها توكيلا على بياض من جمهورها لكي تختار له ، وتغني له ما تختاره ، وتغير فيما تغنيه ..

الجمهور يعلم مثلا أن قصيدة إبراهيم ناجي تبدأ هكذا « يا فؤادي رحم الله الهوى » . ولكنه يغفر لأم كلثوم أن تغنيها « يا فؤادي لا تسل أين الهوى » ..

وفي قصيدة ريم على القاع لأحمد شوقي يقول الشاعر « فرب منصت والقلب في صمم » ولكنه يغفر لأم كلثوم أن تغنيها : « فرب مستمع والقلب في صمم » ..

الجمهور يغفر لها إذن ما لا يمكن غفرانه . إنه جمهور استثنائي . جمهور حساس لكل كلمة من أم كلثوم . كل همسة . كل آه . قليل من النغم طرب . قليل من الآهات متعة .

وحينما تغني أم كلثوم فكل شيء يصبح في خدمة غنائها . قدماها تتحركان ـ خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الخلف . يداها تساعدانها في الغناء : برقة كما في أغنية « رق الحبيب » بعنف كما في نشيد « فدائيون » بكبرياء في أغنية « فات الميعاد » . بتفاؤل في اغنية « أنت عمري » بحسرة في قصيدة « الأطلال » بابتهال في قصيدة « ولد الهدى » بمنديل في جميع الأحوال ..

إن وجهها يعبر بانفعال . يداها تحتضنان الهواء . عيناها تؤكدان المعنى . أذناها تجمعان الحصيلة ..

الحصيلة هي أن كل مستمع يحس أن أم كلثوم تغني له شخصيا ،

تغني له على انفراد .. ولكن على مسمع من الملايين ..
الحصيلة أنها عندما تغني فإن الجمهور يحس أن الحياة هي موت بغير غناء . بغير طرب . بغير حب ..
الحصيلة أن أم كلثوم قامت بعملية تاميم لعاطفة الحب . أصبح الحب ملكية عامة . حبا للجميع ..
وأنت لا تستطيع أن تسال أم كلثوم : ما هو الحب ؟ إذن .. اسال من يصلي : من هو الله ؟ اسال من يعيش : ما هي الحياة ؟ .. اسال من يتنفس : ما هو الهواء ؟ !
الحب الذي تعبر عنه اغاني أم كلثوم هو حب من نوع خاص . حب يجعل النهار أطول والليل اقصر والقمر ينير اكثر والنجوم تصبح أجمل وأكبر والشجر قبل الربيع نراه أخضر ...
إن الفيلسوف الاغريقي افلاطون كان يرى أن الحب ـ من بين جميع آلهة الاغريق ـ هو أحسن صديق للرجال . أحسن مساعد لهم . أحسن شاف لأمراضهم ..
وهذا المفهوم نفسه تجده في أغاني أم كلثوم . حب للحب . تماما كالفن للفن . كالحياة للحياة . إن الحب ـ في أغانيها ـ يتالم بلذة ، يضحي في صمت ، يتعذب في سعادة ، يقاسي من بعيد ، إنه حب لا ينتظر تعويضا عن عذابه . لا يتوقع مكافاة . الحب مستمر . شيء لا مفر منه . حكم أبدي . قدر . إنه عاطفة يبحث عنها العاشقان مع علمهما مقدما بانهما سيتالمان . ولكنهما ـ في النهاية ـ يقولان مع ايمرسون : « كل المتع الأخرى لا تستحق آلامها .. إلا الحب » !
وأم كلثوم ـ في تعبيرها غنائيا عن هذا المفهوم من الحب ـ إنما تعبر عن مفهوم أساسي طلبه الانسان من الحب منا طويلا . فالانسان ـ منذ البداية ـ يعيش بالحب . وفي الحضارات القديمة جعل الانسان للحب إلها . فالحب هو الاقدم بين كل الآلهة . موجود قبل كل الآلهة . هكذا صور الاغريق مثلا . إن كيوبيد عندهم له صفات أربع : انه طفل دائما . أعمى دائما . عار دائما . يرمي سهامه دائما .
والحب في أغاني أم كلثوم لا يعبر عن موقف غالبا . انه يعبر عن حالة نفسية ..

إن الهوى فى أغانيها بلا مواعيد . وعندما ياتى فإنه : غلاب . هجره مرار وعذاب . يومه بسنة . كل شىء فيه بقضاء ..

والحبيب فى أغانيها له : ابطاء المذل المنعم .. وتجنى القادر المتحكم . يحرمها من رضاه . يشجيه انينها ..

إنها تهجره حتى تنسى هواه وتودع قلبه القاسى . ولكنها تكتشف انها تفكر فيه وهى ناسية !

إنها تناديه على مشهد من « .. الليل وسماه ونجومه وقمره وسهره » ..

إنه عمرها . إنه حبيب الأمس .. وحبيب اليوم .. وحبيب غدا . حبيب لكل العصور ..

إنه يغمض عينيه حتى يراها . يوحشها وهى أمام عينيه .

وحبها له فيه « وصال ، ودلال ، ورضا ، وخصام . من ده وده » ..

و ـ الحب كده ..

ازاى كده .. ؟

أهو ده اللى جرى

انها اذن صورة تحدد أبعاد الحب : محير دائما ، مؤلم دائما ، ممتع دائما . انه حكم على الجميع . ضرورى للجميع . انه حب للجميع ! انه حب لا يعبر عن الواقع كصورة فوتوغرافية . انه يجمل الواقع كلوحة زيتية . ليس موقفا . . ولكنه حالة . ليس حقيقة . . انه خيال .

● ● ●

ولكن الحب فى أغانى أم كلثوم لا ينفرد بهذا الوضع الخاص . وضع استثنائى . ان كلمات الحب أيضا لها وضع استثنائى .

لقد سمعت مرة رئيس وزراء ولاية بماليزيا يقول لأم كلثوم : « اننا نتعلم اللغة العربية من خلال اغانيك » !

فى الواقع ان أم كلثوم تعيد الحياة إلى كلمات كثيرة فى اللغة العربية هجرناها منذ مدة طويلة ..انها تقوم بعملية تلميع لكلمات علاها صدأ كثير ، فتصبح براقة ناصعة . . ومفهومة ! انها تقوم فى الواقع بالتوسط بيننا وبين اللغة العربية الفصحى . وساطة مقبولة من الجانبين .

خذ مثلا هذا البيت من قصيدة أحمد شوقى (سلوا كئوس الطلا) .

باتت على الروض تسقينى بصافية لا للسلاف ولا للورد رياها

أو ـ هذا البيت :

حمامة الايك من بالشجو طارحها   ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها

ان أى صحيفة لو نشرت هذه الأبيات الآن لاحتاجت إلى توزيع قاموس معها لشرحها . قاموس تقول فيه ان « الايك » هو نوع من الشجر . وان « الدجى » معناها الليل . و « الشجو » هو الهوى .

لن تجد هذه الكلمات اليوم فى كتاب ، أو مجلة ، أو صحيفة ، ولا حتى فى مؤلف جامعى . نادر .

● ● ●

وسحر أم كلثوم يتركز أولا فى شخصيتها . وثانيا فى صوتها . صوت أبعاده من ٦٠ إلى ١٦ الف ذبذبة فى الثانية . بينما أقوى صوت يليها يصل إلى ١٠ آلاف ذبذبة فى الثانية فقط . حقيقة علمية .

هذا الصوت هو الذى عطل المرور فى حى شبرا بالقاهرة ساعتين عندما أذيعت أغنية « انت عمرى » سنة ١٩٦٤ . حى شبرا يسكنه مليونان من السكان .

هذا هو الصوت الذى هتفت له الجماهير فى تونس قائلة : أهيكا أم كلثوم . . وعبرت عنه فيروز عندما ظلت تردد لها : الله بيخلى اياك . ويسمونه فى باكستان : ممتازة الامتياز . واستقبلوا صاحبته فى السودان والمغرب والكويت استقبال رؤساء الدول !

هذا هو الصوت الذى كتبت عن صاحبته مجلة « تايم » الأمريكية تقول : « ان أسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ ٣٢ عاما لأنها أشهر وأقوى شخصية فنية فى الوطن العربى . وليست هناك أية علامة على أن كوكب الشرق تتأثر بالزمن ، لأن العرب يؤمنون بأنه يزيدها قوة ويضيف إلى صوتها غنى وصفاء . وفى الشرق الأوسط هناك شيئان لا يتغيران ولا ينال منهما الزمن . . أم كلثوم والهرم » .

أما جريدة أوبزرفر البريطانية فتقول : « ان أم كلثوم هى نجمة الغناء العربى التى تجمع كل العرب حول أجهزة الراديو فى الخميس الأول من كل شهر خلال موسمها ابتداء من الخريف حتى مطلع الصيف . بينما المحظوظون الذين يستمعون اليها مباشرة فى القاعة ويرتفع صوتها فى حنان ويتماوج مع المشاعر ويعبر عنها . ان أم كلثوم تعتبر مؤسسة وطنية راسخة تماما كالهرم الأكبر » .

وقالت « لومانيتية » بعد حفلها فى باريس : انها فنانة تملك سلطانا مدهشا تؤثر به على الجماهير .

وقالت « الاسوشيتدبرس » : لقد شهد الشرق الأوسط ثورات وانقلابات ، وطرد ملوكا ، وظهر رجال أقوياء ولكن شعبية أم كلثوم بقيت كما هى منذ أكثر من نصف قرن . . فهى ملكة الغناء العربى بلا منازع .

أما جريدة « فرانس سوار » فتكرر : ان شهرة أم كلثوم فاقت شهرة أعظم المطربين فى العالم الذين استمع اليهم الفرنسيون على مسرح الأوليمبيا . بل انها أصبحت أشهر من جان دارك وتفوقت على أديث بياف وماريا كالاس . ان شهرة أم كلثوم فى المنطقة العربية لا ترتفع اليها ولا تعادلها شهرة أى نجمة للغناء فى هذا الجزء من العالم .
هذا الجزء من العالم ؟

نعم . هذا ما قالته الصحيفة الفرنسية .

ان المنطقة كلها من المحيط إلى الخليج هى جزء واحد عندما تغنى أم كلثوم . سقطت الحواجز . ذابت الحدود . اتحدت الآذان داخل عشرة ملايين كيلو متر مربع . هذه هى النقطة . ان صوت أم كلثوم اقام أول سوق عربية مشتركة . سوق فى حال غير الحال ليلة تغنى أم كلثوم . كل الاذاعات تنقل صوتها . كل المستمعين يعطونها آذانهم . القديم والجديد ، الحكـام والرعايا ، الوزير والفقير ، راكب الجمل وراكب السيارة ساكن القصر واكن الكوخ ، مشاهد التليفزيون ومستمع الراديو . ان غناء أم كلثوم موجود حيث توجد كل نسمة هواء فى هذه المنطقة . لقد تركت أم كلثوم بصماتها على الهواء الذى تتنفسه هذه الأمة . الحياة غير الحياة عندما تغنى ، العواطف غيرالعواطف ، الناس غير الناس .

« هبلت الناس يا أم كلثوم » .

هكذا قالت لها احدى سيدات المجتمع معبرة عن اندفاع الجماهير لاستقبال أم كلثوم وهى تغنى فى تونس . هكذا قال أيضا الصحفى الدانمركى دينيس دوبرلى عندما شاهدها تغنى فى ليبيا . لم يكن يفهم ما تغنيه ، ولكنه كان يسمع . . كان يرى .

● ● ●

« ألا ترى » ؟ هكذا يسألنى جارى فى حفل أم كلثوم بطنطا أرى ماذا ؟ . . « ترى ثومة » ! طبعا أرى . طبعا أسمع . أسمعك وأنت تهتف لها « تاني يا ثومة » ! وأرى زوجتك وهى تنظر إلى أم كلثوم بالنظارة المعظمة . صورة تجد مثلها دائما فى جميع حفلات أم كلثوم وأرى الجميع فى حالة فرح . وعندما زغردت واحدة من الحاضرات انفجر الجميع ضاحكين ضحكة رجل واحد !

طبعا أسمع وأرى هذا كله . أرى خلفى زوجا ، وأمامى عاشقا أما انا فمنطقة محايدة ! انا محاط بساندويتش من الأزواج والعشاق لقد جاء الزوج بزوجته فى يده وذكريات فى عقله ودمعة فى عينه ومنديل فى يده . زوج مخلص .

وأرى العاشق بحبيبة فى ذراعه .

غناء أم كلثوم هو - بالنسبة للزوج - محاولة لتجميل الماضى . وبالنسبة للعاشق محاولة لاكتشاف المستقبل .

فالحب عند الأول ماض انتهى بدمعة . وعند الثانى حاضر يتحرك بابتسامة .

لم يعد الماضى بالنسبة للأول ذكرى انتهت منذ سنة ، ولا منذ خمس دقائق . الماضى اصبح موجودا الآن . الماضى أصبح حياة . الماضى تحكى عنه أم كلثوم . والله زمان . . يا حب !

والمستقبل بالنسبة للعاشق لم يعد شيئا يطويه الغيب ، ولا هو شىء يحذره منه الأصدقاء . المستقبل أصبح موجودا الآن . يتحرك على المسرح . يتدلل فى الميكروفون . المستقبل أصبح هذا الذى تكشفه ام كلثوم بغنائها . المستقبل اصبح كل هذا الحب .. هذا الدلال .. هذا الالم .. هذا السحر .. هذه المتعة .

والزوج معه طفلة . طفلة فى الثانية عشرة على ما يبدو . انها تستمع أيضا إلى اغنية الحب التى تغنيها أم كلثوم . تستمع بمتعة وشغف لقصة حب ترويها أم كلثوم . تستمع اليها كما لو كانت تنظر من ثقب الباب لترى ماذا يفعل الآخرون عندما يحبون ! اصبرى قليلا يا عزيزتى الصغيرة !

اننا نقول فى المسرح أن هاملت - بطل شيكسبير - هو رمز للشك وان « عطيل » - بطل شيكسبير أيضا - هو رمز للغيرة .

● ● ●

ولقد أصبحت أم كلثوم رمزا للحب . أصبحت كذلك حتى بالنسبة للذين لم يجربوا الحب بعد . حتى بالنسبة للذين يعتبرون الحب ذنبا واثما . حتى هؤلاء يستمعون اليها كما لو كانوا يقومون برحلة إلى عالم الذنوب دون أن يرتكبوا ذنبا . يسبحون فى البحر دون أن تبتل ملابسهم .

وعندما انتهت أم كلثوم من غنائها بدأ الجمهور ـ بصعوبة ـ يغادر كراسيه . وبدأت الساعات فى أيدى الجمهور تعود إلى الدوران ، بعد أن توقفت عقاربها أربع ساعات حتى تستمتع .

بدأ الجمهور يعود إلى منازله . . « انتهى الليل وسماه .. ونجومه .. وقمره .. وسهره » لم يعد هناك سوى (انت .. وأنا) كلنا الآن فى الحب سواء ، كلنا كنا فى ليلة من الف ليلة .

من الآن فصاعداً لم يكون الحب اثماً .. من الآن فصاعداً لا خطيئة لا ذنب ، لا خوف ، لا انتظار ، لا فراق ، لا ألم من الفراق .

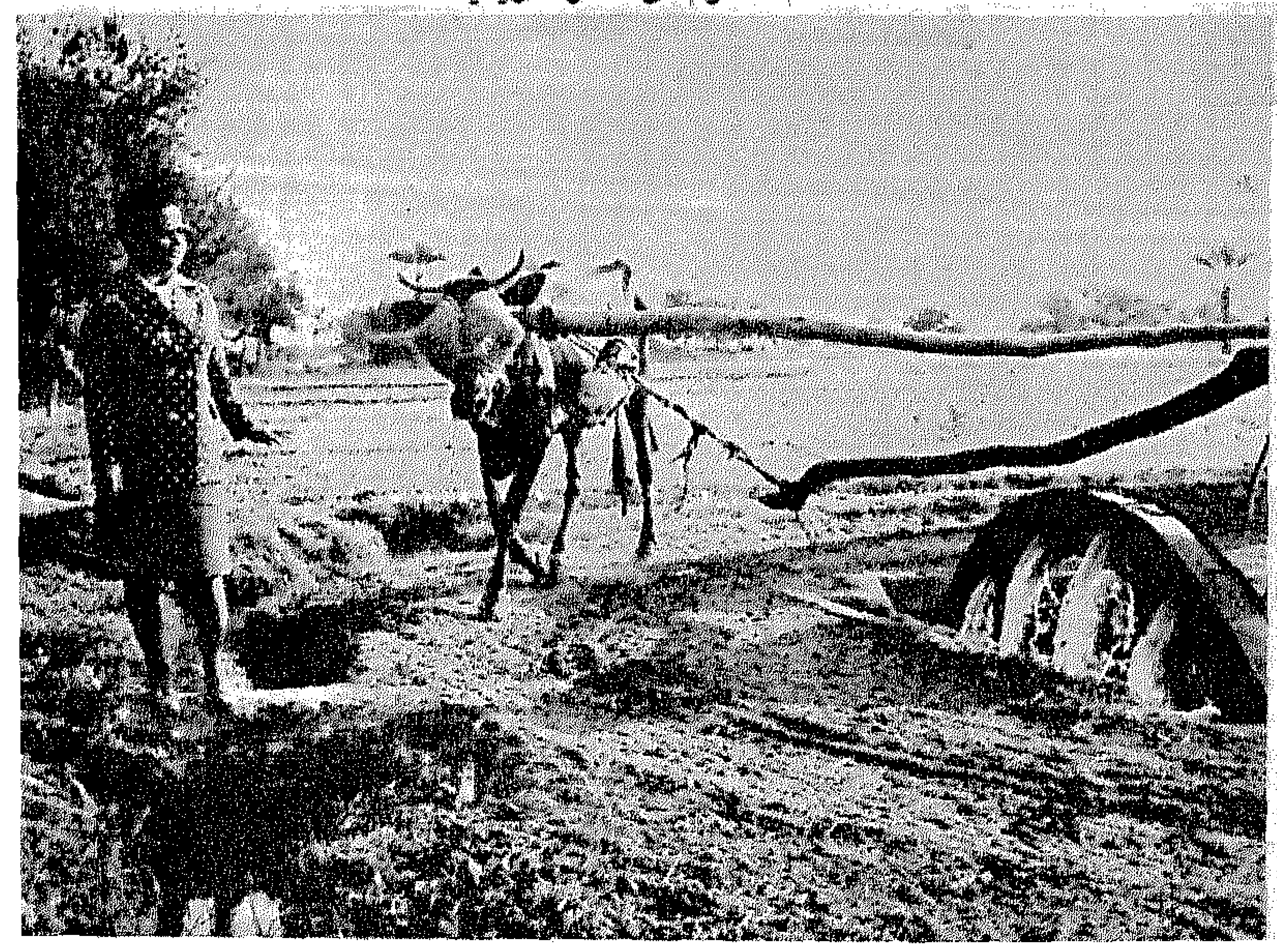
لقد تحققت النهاية . أصبح لنا قلب جديد وعواطف جديدة . عاد الجمهور إلى منازله اثنين اثنين .

عاد بالخطوَة البطيئة !



أم كلثوم فى السينما مع إبراهيم حمودة

م كلثوم فى خلوة ريفية





ام كلثوم : الريف ينقذني من حياة القاهرة



أم كلثـــوم ..
.. فى البيـــت

«كلّ منا يبحث فى السعادة عن
الجزء الذى يهمه»

أم كلثوم

أم كلثوم ست بيت فاشلة جدا ! إنها مثلا لا تجيد الطبخ ! فى الواقع أنها لم تحاول مرة أن تطبخ ولا مرة ! . إنها لو حاولت فالنتيجة معروفة مقدما !

لهذا فان أم كلثوم لا تتدخل فى أعمال منزلها . لديها من يقوم بذلك .. ولكنها تتدخل فى أشياء اخرى . تنسيق الغرف مثلا . المكان الذى تعلق فيه اللوحات الفنية مثل آخر . لوحة نحاسية للعذراء تجدها فى المدخل . لوحة زيتية للفنان صلاح طاهر فى الصالون . لوحة اخرى تمثل الفلاحة المصرية فى الغرفة الأولى .. وهكذا .

وزوج أم كلثوم له ذوقه فى المنزل ايضا . أن مهنته ـ كطبيب ـ تحدد ملامح ذوقه : الدقة ، النظام ، الترتيب .

ولهذا ، فبينما يختلف الدكتور حسن الحفناوى عن زوجته أم كلثوم فى مواعيد وأسلوب العمل والعادات المنزلية .. فانهما يتفقان فى شىء آخر : الذوق الفنى .

والواقع أن اتفاق الذوق الفنى كان أول نقطة اتفق فيها الدكتور حسن الحفناوى وزوجته . هذا الاتفاق هو الذى ادى إلى زواجهما فى سنة ١٩٥٥ .

كان الدكتور حسن من ابرز أطباء الأمراض الجلدية (الآن أستاذ فى طب عين شمس) وعندما يصبح الطبيب موهوبا .. فغالبا ما تمتد موهبته إلى دائرة الأدب والفن . الدكتور نجيب محفوظ طبيب أمراض النساء مثل لذلك . الدكتور محمد كامل حسين طبيب أمراض العظام مثل ثان . الدكتور حسن الحفناوى مثل ثالث .

والدكتور حسن من « سميعة » أم كلثوم . هكذا بدأت علاقتهما مستمع .. ومطربة .

ولكن أم كلثوم كانت تتردد عليه للعلاج فى سنة ١٩٥٤ علاقة عادية أخرى : طبيب ، ومريضة .

وتطورت هذه العلاقة العادية إلى اتفاق عاطفى .. ثم إلى الزواج وتم الزواج بعد عودة أم كلثوم من رحلتها إلى أمريكا للعلاج . تم فى سنة ١٩٥٥ .

وعندما تجلس أم كلثوم لن تسمع اسم حسن الحفناوى .

وعندما تجلس مع الدكتور حسن لن تسمع اسم أم كلثوم .

وجزء كبير من مجهود الدكتور الحفناوى يضيع فى الهرب من الصحفيين ـ قبل الزواج كان يحضر حفلاتها العامة بانتظام . بعد الزواج اكتشفته عدسات المصورين فتوقف عن الذهاب واكتفى بسماع زوجته فى البيت . وعندما بدات أم كلثوم تسافر إلى الدول العربية للغناء كان الدكتور حسن يذهب إلى المطار لتوديعها ومرة أخرى اكتشفته عدسات المصورين .. فتوقف عن الذهاب إلى المطار ، واكتفى بتوديع زوجته فى البيت .

ان هذه التصرفات ـ وغيرها كثير ـ هى إصرار من الطرفين على ألا تختلط حياتهما الخاصة بحياتهما العامة . إصرار يصل أحيانا إلى حد التزمت . أنه تزمت لأن شخصية الانسان واحدة فى الحالين أمام الناس ، وبعيدا عن الناس . انها شخصية واحدة .. أو من المفروض أن تكون واحدة . لهذا فان البحث فى الجانب الشخصى لحياة الفنان هو أمر مهم .. فى الحدود التى تؤدى إلى استكمال بحث شخصيته العامة .

ولكن مثل هذا الراى لا يقنع أم كلثوم بسهولة . ولفترة طويلة جدا ـ ما زالت مستمرة ـ لم يكن اى صحفى يستطيع أن يسال أم كلثوم عن حياتها الخاصة . عيب . ان الصحفى يترك أم كلثوم فى النهاية ـ بأصبع على شفتيه ـ دون أن يناقش حياتها الخاصة .

ولكن أم كلثوم تطورت . يستطيع الصحفى الآن أن يناقشها بدرجة محدودة فى حياتها الخاصة . ولكنه سيكتشف بعد لحظة ان أم كلثوم قد حولت الحديث عن حياتها إلى حديث عن فنها . فن !

ان هذه العزلة التى تقيمها أم كلثوم بين شخصيتها العامة وشخصيتها الخاصة لها مظاهر كثيرة فى حياتها نفسها .

ان الفيلا التى تسكنها ام كلثوم تقع على الجانب الغربى من نيل القاهرة . فيلا وردية اللون .

والفيلا يحيطها سور دائرى . هذا السور هو حاجز بين أم كلثوم التى يعرفها الناس ، وأم كلثوم التى لا يعرفها الناس . حاجز مرتفع ، قبل هذا السور تحتفظ أم كلثوم لنفسها بسلطتها كفنانة . بعد السور تحتفظ لنفسها بحريتها كزوجة ، كانسانة ، كفرد عادى . هنا - فى داخل هذه الفيلا - تريد أم كلثوم أن تستريح ، تستريح تستريح . انها تستريح كمقدمة لعمل غنائى جديد . فالغناء أيضا يحتاج إلى مجهود . الغناء يحتاج إلى استعداد . الغناء .. ما هذا ؟ لقد بدأنا بحياة أم كلثوم فانتهينا إلى غناء أم كلثوم ! الم اقل أن أم كلثوم تحول كل حديث عن حياتها إلى حديث عن فنها ؟ ! انتباه .

ان شخصية أم كلثوم كفنانة هى إمتداد لشخصيتها كانسانة . انها غير عادية فى فنها . لهذا تصر على أن تكون عادية فى حياتها .. فى أسلوبها .. فى حديثها . هذا هو الانطباع الأول الذى تخرج به بعد أول دقيقة من الحديث مع أم كلثوم فى بيتها .

أن وجهها - فى بداية الحديث - يعطى لنفسه اجازة من الانفعال مستمعا إلى ما تقوله انت . على هذا الوجه نظارة سوداء . خلف النظارة تختفى عين أم كلثوم متنكرة . ان الانطباع الدائم الذى تتركه عيناها هو قوة الارادة . عندما تصل هذه القوة إلى حدها الأقصى تصبح عنادا . عندما تهبط إلى حدها الأدنى تصبح إصرارا .

وإذا تكلمت أم كلثوم فانها تضغط دائما على حروف الكلمات . يداها تساعدان فى هذا الضغط . تعبيرات وجهها تؤكد المعنى . وجه خال من الزوايا القاطعة ، معبا بالعواطف الحادة .

إن الكلمات تخرج من فم أم كلثوم متلائمة مع جو الحديث . انها كلمات حارة غالبا باردة نادرا . كلمات مكيفة الهواء .

ولكن أم كلثوم لا تندمج فى أى حديث من السطر الأول . انها - فى البداية - تتكلم برأسها ، لا بشفتيها .. انها تستمع .. وتستمع .. كلمة او كلمتين ، ثم تستمع مرة اخرى .

اقول أن أم كلثوم فى حياتها الخاصة منعزلة عن الناس ، هذه العادة جعلتنى أقول لها مرة : انك قضيت ساعات وساعات على امتداد حياتك

الفنية أمام الكاميرات والميكروفونات .. تجيبين وتسألين . ان هذا كله يشير إلى أنك تحبين الناس . أو تهتمين بسماع آرائهم على الأقل . ومع ذلك فانا اعرف انك فى حياتك الخاصة نادرا ما تختلطين بالناس . نادرا ما تلغين المسافة بينك وبينهم .. ألا ترين أن هذا تناقض ؟

وكان رد أم كلثوم ببساطة : هذا صحيح . انني أهتم بمتابعة آراء المجتمع فيما اقدمه . ولكنني مع ذلك لست نجمة مجتمع . لست كذلك بمعنى أننى لا أفضل أن يرانى الناس فى كل ركن يستديرون اليه . لا أفضل أن أكون من الذين يراهم الناس موجودين فى كل سهرة .. ظاهرين فى كل مناسبة . على ذلك . فانا لست من الذين يزورون كثيرا أو يزارون كثيرا . لست من الذين يعيشون حياة صاخبة . انا حريصة فقط على أن اقوم بدورى الفنى . بعدها انسحب فورا متراجعة إلى حياتى الخاصة . تعرف ليه ؟ لأن الفنان إما أن يبنى نفسه ، أو يدمر نفسه . وأنا حريصة ـ حتى الآن ـ على ان ابنى نفسى . وهذا فى الواقع ليس تناقضا كما قد يبدو . أن عملى يفرض على بعض الأعباء التى جعلتنى أختار هذا الأسلوب فى الحياة .

وعدت أسأل أم كلثوم : ما الذى جعلك تصبحين فنانة ؟

وردت بسرعة : « لم أكن مطلقا اى شيء آخر . ولا أريد أن أكون اى شيء آخر . »

هنا رفضت أن أقتنع برد أم كلثوم !

رفضت لأننى لا استطيع أن اقول آمين هنا بسهولة .. حتى لأم كلثوم !

قلت لها : أنك تحدثيننى كما لو كان عملك هو كل شيء فى حياتك . ومع ذلك فانا اعلم أن هذا غير صحيح . أعلم مثلا انك تعطين حياتك الزوجية إهتماما يساوى على الأقل إهتمامك بعملك . اليس كذلك ؟

وضحكت أم كلثوم وهى ترد : طبعا .. هذا شيء ، وهذا شيء . ما دمت زوجة فلابد أن اقوم بواجباتى كزوجة . لا بد الا يكون إنشغالى بعملى عذرا لتقصيرى فى حياتى الزوجية . ومع ذلك ، فحتى هنا ليست هذه هى القاعدة دائما . هناك استثناءات أحيانا . إستثناءات زوجية ، ليست مشاكل زوجية . ان مايجعلها كذلك هو أن زوجى الدكتور حسن

وإننا نقدر أعباء بعضنا . أحيانا ينهمك الدكتور حسن فى ابحاثه الطبية ويسهر معها وينشغل بها . أنا لا الومه على ذلك . نحن إذن لا نتبادل المشاكل . نحن نتبادل التقدير . ان كلا منا يعلم أن المشاكل الزوجية سببها غالبا سوء التقدير . ما دام لا يوجد سوء تقدير ، فلا توجد مشاكل . على أننى لا أقول أن اختفاء سوء التقدير هو الأساس الوحيد للحياة الزوجية . لا بد أيضا من التقدير . وفى هذه الحدود فاننى وزوجى نبنى حياتنا على أساس من التقدير المستمر . تقدير متبادل .

ومن الأمور المتكررة كل يوم جمعة أن تخرج أم كلثوم فى جولة مع زوجها سيرا على الأقدام فى شارع النيل . ان أم كلثوم تحب المشى . انها تسير يوميا لمدة ساعة تقريبا على النيل « .. ما عدا أيام الصيف ، لأن الجو يبقى حر » .

وهى تصلى . ومن أحسن أوقاتها تلك التى تجلس فيها ممدودة القامة حافية القدمين، مرددة آيات القرآن الكريم . أن الصلاة والمشى جزءان من التقاليد الثابتة فى حياة أم كلثوم . مواعيد النوم والاستيقاظ أيضا ثابتة غالبا . فى اليوم العادى لا تتأخر فى النوم . بالكثير الساعة الحادية عشرة مساء . ثم تستيقظ فى الثامنة صباحا . لا افطار . مجرد فنجال شاى . الغداء أيضا حسب الظروف أما الوجبة الرئيسية فهى العشاء .

ولكن ، عندما تكون لديها بروفات أو حفل عام .. يتغير الجدول ! الغداء يصبح هو الوجبة الرئيسية : لحوم طيور وخضراوات . « الشعرية » من أحب الأطعمة عند أم كلثوم . بعد الغداء تشرب دائما عصير فواكه طبيعى . عصير معد فى المنزل . غالبا عصير جوافه .

وفى ليلة الغناء لا تتناول أية اطعمة فى المساء . لا عشاء . ولكنها قبل الغناء لا بد أن تشرب فنجال قهوة .. بارد . عادة . بعد الغناء ساندويتش ، ولا نوم حتى الصباح .

وحتى سنوات قليلة مضت كانت أم كلثوم تقوم دائما بزيارة مسجد الحسين ومسجد السيدة زينب قبل أن تغنى . أما الآن فهى تكتفى بقراءة آيات من القرآن الكريم . انها تتمتم بآيات القرآن فى كل خطوة .. حتى عندما تسير فى الشارع أو تركب سيارة . لقد ركبت معى السيارة

مرة فى طريقها من منزلها إلى مبنى التليفزيون . وفى أول خمس دقائق إكتشفت أن عقلها ليس معى . أنها تردد آيات القرآن سرا . بعد لحظات كانت مستعدة للكلام . ساعتها أبطأت السيارة وبدأت أجرى معها حوارا بالخطوة السريعة .

هكذا اجابت أم كلثوم !

— ماهى أكبر خطيئة : أن ترى الخطأ ولا تنبه اليه .
— أحسن صديق : شخص يشاركك الملك .
— أحسن مكان : حيث تنجح .
— اقصر طريق للنجاح : العمل .
— أحسن عمل : الذى تحبه .
— اكبر راحة : أن تؤدى عملك جيدا .
— اكبر خطأ : اليأس . انه موت مبكر .
— أسهل شىء : أن تجد خطأ لشخص آخر
— اكبر عيب : الغرور .
— أحسن مدرس : شخص يرفض أن يجاملك .
— أحقر شعور : الحسد .
— اكبر لغز : الحياة .
— أعظم شىء فى العالم : الحب .
— أكبر مقلب : شخص لا يفهم ما تريد .
— أكبر عدو : اسرائيل .
— أعظم مهمة : أن نفتدى بلدنا بحياتنا..
— اكبر امل : أن تعود فلسطين .
— اشرف واجب : الدفاع عن الحق .
— أسمى فكرة : الله .

● ● ●

ان أم كلثوم تتفاءل بقراءة القرآن الكريم . وتتفاءل بحمل مصحف صغير فى حقيبة يدها أينما تسير . ولكنها تتشاءم إذا نسيت أن تاخذ معها عند سفرها وسادة خاصة تنام عليها . فى الواقع أنها تكره أصلا أن تتشاءم . لأن « التشاؤم . يتحول فيما بعد إلى شؤم حقيقى » .

والسعادة بالنسبة لأم كلثوم « .. مسألة نسبية . فما يسعدنى قد

لا يسعدك . وما يسعدك قد لا يسعد شخصا ثالثا . ان كلا منا يبحث فى السعادة عن الجزء الذى يهمه » .

اما المرأة فى رأيها فهى « .. الأساس فى كل شيء . انها البداية نحو خلق أسرة متماسكة . وكلما كانت المرأة مثقفة زادت قدرتها على فهم زوجها ودفعه إلى الأمام . وما تقدمه بلدنا للمرأة اليوم سوف تسترده قيمة وثقافة وكفاءة من الجيل الجديد بعد عشرين سنة » .

بعد هذه الجملة فان رأى أم كلثوم فى المرأة يزيد تفصيلا .. من رأيها مثلا ..

« .. ان المرأة السودانية انيقة بحشمة ، محترمة باعجاب ، وهى بالفعل جديرة بالاحترام الذى يبديه لها الرجل السودانى ..

« .. اما المرأة فى المغرب وتونس فانها جميلة جدا .. خصوصا بزيها الوطنى .. جميلة ومثقفة ..

« .. والمرأة اللبنانية هى أسرع امرأة عربية إلى الموضة . ان الموضة تبدأ فى بيروت دائما ، ثم تنتشر بعد ذلك ..

« .. والمرأة الكويتية تحاول التوفيق بين حشمة مجتمعها وموضة بيروت . انها فى منتصف المسافة بين المرأة السودانية والمرأة اللبنانية ..

« .. وعلى اى حال ، فان المرأة العربية بصفة عامة اصبحت تهتم بالذوق الفنى أكثر من أى وقت مضى .. والذوق فى حد ذاته جزء من الثقافة » ..

والواقع ان ام كلثوم نفسها حريصة على الثقافة . انها تتحدث الفرنسية بطلاقة ، الى جانب قليل من الانجليزية . وام كلثوم تعزف على العود . وهى تقرأ كثيرا . تقرأ الشعر . انك لا تستطيع أن ترمى بحجر فى بيت ام كلثوم دون ان تصيب ديوانا من الشعر .. او حتى بيتا !

ان ام كلثوم تحتفظ بدواوين المتنبى وابو نواس وابن الفارض ومهيار الديلمى . تحتفظ بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى . تحتفظ ايضا بمختارات محمود سامى البارودى وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم . من قراءاتها ايضا كتاب « كليلة ودمنه » وكتاب « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى .

ومن الكتب التى تحب أن تقرأها وتعيد قراءتها كتاب « حياة محمد » للكتور محمد حسين هيكل . وكتاب « الأيام » للدكتور طه حسين .

بعد الكتب كانت أم كلثوم تهوى مشاهدة الأفلام السينمائية وبعض المسرحيات ، خصوصا مسرحيات يوسف وهبى . ولكنها توقفت عن ذلك منذ زمن طويل . لقد حل الراديو والتليفزيون محل السينما والمسرح . فى الراديو تحب سماع الموسيقى والبرامج الدينية .

وبالاضافة الى ذلك فلديها عدد ضخم من الأسطوانات الموسيقية انها تحب سماع الموسيقى الهندية والتركية ، بالاضافة إلى الموسيقى الشرقية .

وأم كلثوم سبق أن حاولت التلحين . ولكنها فشلت مرتين . لقد لحنت لنفسها فى مطلع حياتها الفنية طقطوقة (على عينى الهجر دامنى) ومونولوج (يا نسيم الفجر ريان الندى) . وهما من نظم الشاعر أحمد رامى .. ومسجلتان فعلا على اسطوانات .

فى الواقع أنها لم تشجع نفسها على الاستمرار فى هذا الاتجاه ، بالرغم من أن عددا من اصدقائها شجعها على ذلك . السبب « .. أننى أرى أن الانسان لا بد أن يرغم نفسه على التخصص » .

وايمانها بالتخصص هو الذى يجعلها تؤمن بأن التليفزيون يجب أن يكون لديه فنانوه المتخصصون فيه . انها تقول « .. كنت أحب عددا من الفنانين عندما كنت اسمعهم فى الراديو . ولكننى عندما بدأت اراهم فى التليفزيون قل اعجابى بهم » .

● ● ●

وأم كلثوم بعد هذا كله تحب ان تسمع نفسها . انها تقول لنفسها « آه » ! وهى عندما تفعل ذلك تكون بمفردها . أم كلثوم وحدها . مع أم كلثوم . وهى تقول « .. اننى اسوأ مستمع لنفسى ! فحينما اسمع تسجيلاتى .. أسمعها بأذن اخرى . . اذن الناقد القاسى . . الناقد الذى يعرف ان كل شىء كان يمكن أن يكون أحسن » وعملى كان يمكن ان يكون أفضل . بل اننى لا أرضى عن غنائى سوى مرتين فى السنة ، هما اللتان احس فيهما فعلا اننى تفوقت على نفسى » .

وهى تقول أيضا : « . . اننى حريصة جدا على أن تكون حياتى مليئة بأكبر قدر من العمل ، وأكبر قدر من النظام .

وان العمل والنظام لم يساعدانى فنيا فقط ، وانما ساعدانى صحيا ايضا بدرجة متساوية . اننى مثلا مدينة لفنى بصحتى . أن النوم المبكر والسهر نادرا والقراءة المستمرة والاستماع الدائم . . ليست مجرد عادات اجتماعية او ثقافية . انها أيضا عادات فنية . وبالاضافة الى ذلك . . فان الغناء بالنسبة لى هو متنفس لاشياء كثيرة . . متنفس لطاقات كثرة لا اجد وسيلة اخرى للتعبير عنها .

وهنا خطر لى فجأة ان أسأل : أم كلثوم . . لماذ تغنين ؟

— ايه : : ؟

— لماذا تغنين ؟

— آه . . لا ننى أريد ان أكتشف فى نفسى شيئا اريد التعبير عنه .

— وهل حققت لك اغانيك هذا التوقع ؟

— لا . ليس بعد .

— ألا يمكن ان يكون غناؤك من أجل النقود . . أو من أجل الشهرة مثلا ؟

— ممكن . . ولكن هذا ليس صحيحا الآن . .

— ليه ؟

— أولا لاننى لم أعد فى حاجة الى النقود . . حاجتى اليها أيام طفولتى مثلا . نفس الاجابة بالنسبة للشهرة . كل المسألة اننى أغنى لاننى احس أحيانا بانه ربما تكون لدى فكرة أريد ان أنقلها ، أو عاطفة أريد أن أعبر عنها ، أو هواية أريد أن أمارسها . تأتى بعد هذا كله نقطة هامة جدا : ان الانسان لابد ان يعمل ما دام قادرا على ذلك . لابد ان يعمل . . لان قيمته هى عمله . ليست ثروته . . ليست شهرته . وأنا لا أتصور يوما من حياتى يمر من غير عمل . اننى حريصة على ان تكون حياتى اطارا لعملى . حياتى هى الاطار .. والعمل شىء مكمل له . . شىء مجمل له .

— بمناسبة العمل . . هل يتطلب عملك نفقات كثيرة فى بعض النواحى . . الملابس مثلا ؟

— لا . ليس دائما . . وليس كثيرا . . آه . . تصور ، انه نشر عنى خبر مرة يقول ان الفستان السواريه الذى ارتديه يتكلف ٤٠٠ جنيه

معقول ؟ لا أدرى من أين جاءوا بهذا الرقم . . ان فساتينى تتكلف اقل من ذلك بكثير . اقل جدا .

— وافرضى انه يتكلف ٤٠٠ جنيه . . يجرى ايه ؟

— لا شيء . إلا أن المهم فى المسألة ليست تكاليف الفستان . . انما ذوقه . هكذا ارى . . وبالنسبة لى فاننى لا انقل الموضة ، مع اننى اتابعها . لكى آخذ منها ما يناسبنى . انا لا أريد ان ارتدى فستانا يلفت نظر الناس . . والا تبقى معرض . . موش موضة ! ان اهم اربع صفات فى الفستان الذى أرتديه هى : أولا - ان يكون حشمة . ثانيا - الا يكون متخلفا عن خطوط الموضة السائدة . ثالثا - أن يكون هناك ذوق فى الوانه . . بمعنى أن تكون الأولوان منسجمة فى تركيبها مع بعضها . اما الصفة الأخيرة فهى ان يكون الفستان بسيطا . أن البساطة هى دائما المشكلة . . وهى الحل » !

● ● ●

وعندما انتهت ام كلثوم من كلماتها بدأت افكر . انه سوء تفاهم هذا سوء تفاهم منتشر بين أم كلثوم من ناحية ، وبين جزء من جمهورها من ناحية اخرى . نتيجة غير مقصودة لطبيعة العلاقة بين الاثنين . المشكلة - فى رايى - هى ان الجمهور « يعبد » أم كلثوم وعندما « نعبد » أحدا فاننا نضعه على مسافة بعيدة منا . اننا نحيطه بهالة تختلط فيها حقائق قليلة بخيال كثير . انه دائما يلبس « اغلى » ويتكلم « أحسن » ويتصرف بلباقة « اكثر » . انه معفى من الانفعال ومستثنى من الخطأ .

وهذا هو وجه الخطأ ! !

لقد سالتنى فتاة مرة : هل تعتقد أن أم كلثوم مثل اى واحدة فينا . . تحب وتكره ، تصيب وتخطىء . . تفرح وتبكى . . تتفاءل وتتشاءم ؟

طبعا أم كلثوم هى هذا كله ! ان صورة أم كلثوم لن تكبر بمزيد من الخيال . . بل مزيد من الحقائق . . . ام كلثوم فى حياتها العادية ليست شخصا مختلفا عن كل الاشخاص . انها انسانة عادية جدا . ربما كان الخلاف فى الدرجة ، ولكنه ليس خلافا فى النوع - خلاف يرجع الى ان عواطف الفنان دائما عواطف « سكوب » عواطف مركزة وعميقة .

أم كلثوم تسعد وتتالم .

طبعا هى تسعد عندما تنجح فى عملها . ولكنها تتالم جدا عندما ترى

مريضا امامها ولا تستطيع ان تفعل له شيئا . كان لديها مرة « شغالة » تعمل في منزلها ، ثم أصيبت ساقها بكسر . وعلى الفور الغت كل ارتباطاتها السابقة ونزلت بالفتاة الى مستشفى الهلال بالقاهرة . وبعد ان أجرى المستشفى اللازم للفتاة استعدت أم كلثوم للعودة الى منزلها تاركة الفتاة في المستشفى بناء على طلب الأطباء . في هذه اللحظة بكت الطفلة . « .. قالت لى : لازم أرجع معاكى . . ولم استطع ان احتمل دموع الطفلة . عدت بها معى وطلبت من الطبيب ان يعالجها في المنزل » .

أم كلثوم تفرح وتبكى . لقد بكت مرة بعد نجاح حفلتها بمدينة باريس سنة ١٩٦٨ . وقتها قالت « مع كل هذا النجاح الذى حققه الحفل ، إلا انني كنت اتمنى ان امثل بلدى هنا وهي في ظروف افضل مما اصبحت فيه بعد النكسة » .

أم كلثوم تعرف الازمات النفسية . .

ان اعنف ازمة مرت بها في السنوات الأخيرة كانت قبل وبعد علاجها من تضخم الغدة الدرقية . لقد ظلت الغدة تؤلمها لمدة ثماني سنوات ، الأمر الذى هددها بالتوقف تماما عن الغناء . وعندما ذهبت الى أمريكا لعلاج الغدة سنة ١٩٥٤ توفى اخوها خالد وهي هناك ، يومها حرص الأطباء على عدم ابلاغها بالخبر ، بعد ان علموا مدى حبها لخالد . .

وعادت أم كلثوم الى القاهرة فعلا دون ان تعلم بالخبر . انها لم تعلم إلا بعد ان وصلت الى المنزل . خبر سبب لها اقصى درجات الألم . في الواقع ان وفاة اخيها سببت لها أزمة نفسية لازمتها مدة طويلة . . خلال هذه الأزمة اعتزلت ام كلثوم الحياة تقريبا . . كانت تحبس نفسها في حجرة صغيرة بالمنزل دون ان تتكلم إلى أحد ... أو تطيق أن يتكلم اليها احد . .

وبسبب هذه الأزمة تدخل الأطباء .

قال الأطباء انه لا أمل . . « . . لا امل في ان تعود أم كلثوم الى حالتها النفسية الأولى إلا إذا عادت الى الغناء من جديد » .

وام كلثوم تكره . .

انها تكره أن يخدعها احد . . انها تروى مثلا هذه القصة : « انتهيت

من الغناء في إحدى الحفلات . . ثم جاء الى واحد من المعجبين الذين أعتز بهم .

قالى لى : ايه ده . . انت كنت مش معقولة الليلة دى !

سألته : يعنى ايه ؟

قال : يعني عملتى حاجات ما حصلتش قبل كده !

سألته : يعنى ايه ؟

قال : يعنى كنت روعة . كنت عظيمة . كنت مبدعة .

ولم أفعل شيئا غير انني شتمته !

لقد فعلت ذلك لانني في تلك الليلة بالذات لم أغن كما يجب ان اغنى . كانت أعصابي متوترة وحالتي النفسية سيئة . .

فلم استطع حتى أن أكون في مستواى العادى . . ولهذا كرهت من هذا المستمع نفاقه . . واحدة من اثنين : أما انه لا يفهم ، وأنا لا أحب ان يسمعنى من لا يفهم . وأما أنه يفهم ولكنه ينافقنى . وانا اكره من ينافقنى ، لانه لن ينبهنى الى عيوبى » !

وام كلثوم تضحك !

أن خفة دمها هنا قد تتركز في موقف ، او صدفة ، او قفشة . دخل اليها في البيت مرة زميل صحفي . . زميل قصير القامة . وصافحته أم كلثوم واقفة وهي تقول له : أظن انت الواحد يقعد لك .

وكان الموسيقار محمد القصبجي مشهورا عنه بأنه يصبغ شعر راسه وسوالفه حتى يبدو أسود اللون دائما . ولكن أم كلثوم قالت له في البيت مرة : كفاية باه يا محمد . . دى بقت ختامة !!

وفي مرة اخرى كان محمد القصبجي مسافرا معها في القطار . . ثم تذكر فجاة انه نسى ان يصبغ شاربه . فاخرج قلما أسود من جيبه وبدا يصبغ شاربه . حينئذ اشارت إليه أم كلثوم ضاحكة : شوفوا الرجل رجع شباب . . « بجرة قلم » ! !

وفي مرة علقت لى على مقال نشر عنها في مجلة اسبوعية . مقال كتب بلغة صعبة للغاية . وعندما قالت لى أم كلثوم ان المقال لم يعجبها سألتها عن السبب فقالت : لان كل كلمة فيه لابسة عمة ! !

● ● ●

وأم كلثوم تحب . .

ولكن حبها من النوع التفصيلى ، المحدد ، انها تحب بيت شعر ، أو صورة ، أو موقفا ، أو نكتة . . وبالذات ، وبالتحديد . وعندما تتذكر شيئا فانها تتذكر هذا البيت ، هذا الموقف ، هذه الصورة ، هذا الطفل . . الطفل الذى يملأ بيت أم كلثوم بشقاوته هو عادل .

وعن عادل تقول أم كلثوم : « ان عادل هو اشقى اطفال الأسرة كلها . ومع ذلك فمنذ اليوم الذى ولدته فيه بنت عمى وانا احبه جدا . لقد جاءت به بنت عمى منذ اربع سنوات ونصف سنة وهو رضيع لكى ابحث لها عن طبيب يعالجه من لين العظام . ثم اقتضى علاجه ان يبقى فى هذا المنزل . بعدها طلبت من أمه أن تقيم معه هنا انه الآن فى مدرسة الحضانة ، وعمره لا يزيد على خمس سنوات ، ومع ذلك فانه فى غاية الذكاء وسرعة البديهة .. احيانا اتصور انه يملك عقل رجل فى جسم طفل » .

وحتى الصورة التى تحبها أم كلثوم فى البومها هى صورة طفلة تقبلها أثناء زيارتها للسودان . فى الواقع انك سوف تجد مثل هذه الصورة منشورة بعد كل حفل لأم كلثوم . صورة طفلة صغيرة تقبلها ام كلثوم .

أكبر طفلة فى منزل أم كلثوم اسمها نعمات . انها بنت ابن اخ ام كلثوم لقد انفصل ابواها بالطلاق منذ سنوات . ثم تزوجت والدتها وتزوج أبوها . . بقيت الفتاة الصغيرة - وعمرها تسع سنوات . اخذتها أم كلثوم لتربيها هى فى منزلها . ولم تكن الفتاة قد دخلت مدرسة ولا حتى ذهبت الى كتاب . وعندما بدات نعمات تستقر فى منزل أم كلثوم احضرت لها مدرسا خصوصيا استمر يعلمها ثمانية شهور .. انها فتاة ذكية . . لذلك نجحت بتفوق عندما أدت الأمتحان فى مقرر ثلاث سنوات دفعة واحدة . انها الآن فى السنة الثانية بالمرحلة الاعدادية ، وهى باستمرار تتفوق فى مدرستها . بالذات فى اللغتين العربية والانجليزية .

ان أم كلثوم تحب نعمات ، مثلما أحبت عادل من قبل .

ولقد سالت أم كلثوم مرة : هل تعتقدين ان الزوج والزوجة هما الطرفان الوحيدان فى الأسرة ؟

قالت أم كلثوم : الزوج والزوجة هما الطرفان الاساسيان فى الحياة العائلية ، ولكنهما ليسا الطرفين الوحيدين . طبعا هناك أطراف اخرى ، منها وجود الأطفال مثلا ، ولعل هذا ما تقصده . .

وقلت بسرعة : صحيح صحيح . هذا بالضبط ما أقصده . ولعلنى استطيع هنا أن أسالك فى موضوعات لم يسبق لك التحدث فيها مطلقا من قبل . مثلا : الم يؤد عدم انجابك لاطفال إلى اضعاف حياتك الزوجية ؟

وأم كلثوم ترد . ليست الفنانة ، وإنما ام كلثوم الانسانة تقول : « أبدا ، إبدا ، أبدا ، بل ان هذا السبب نفسه جعل مشاعرى نحو الاطفال وحبى لهم يكبر ويتضاعف . ان أسرتى كلها تعلم مدى شعورى نحو أطفالهم وتعلقى بهم وتعلقهم بى . إن اهم شىء اشتريته من السودان مثلا فى زيارتى الأخيرة كان نسناسا صغيرا . نسناسا حقيقيا . لقد فرح به الأطفال جدا ، وفرحت أنا لفرحتهم . لانه لا يوجد فى الدنيا كلها ما يساوى ابتسامة طفل وسعادة طفل . ولا يوجد اشقى ولا اسوأ من تعاسة طفل . . ودمعة طفل » .

عند هذه الكلمة من ام كلثوم فقد قلمى النطق .

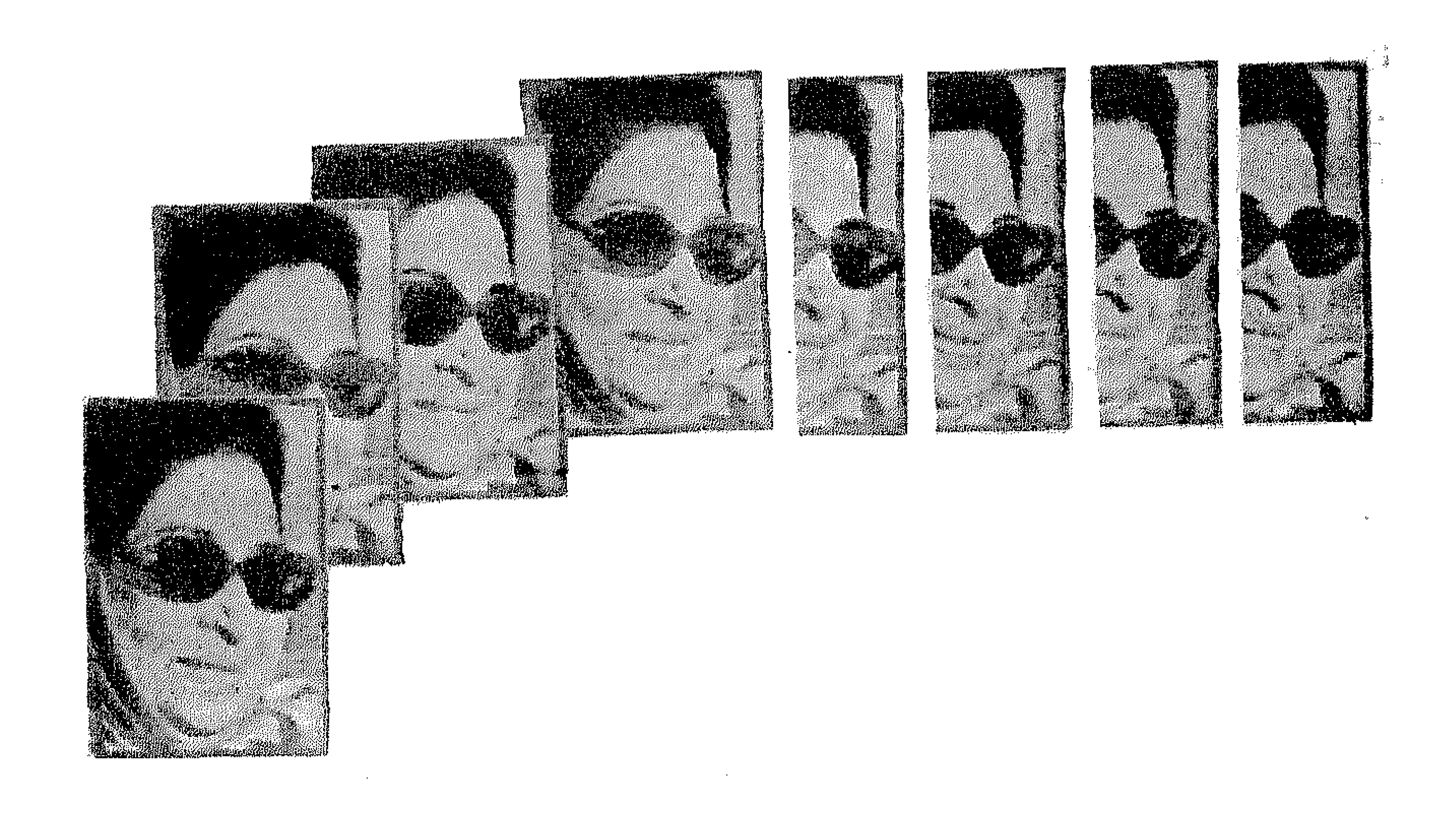
فى الواقع انا أعلم كم هى صادقة فى هذه الكلمات . ومن يدرى لعل هذه المشاعر هى تعويض عن عاطفة اساسية اختفت من حياة أم كلثوم الانسانة . .

ان أم كلثوم فشلت من قبل فى ان تكون ست بيت . وفشلت فى ان تكون ملحنة . .

ولكن فشلها الكبير حكم قدرى .

لقد فشلت فى أبسط ما يدل عليه اسمها ان أم كلثوم . لا تستطيع أن تكون أما !





أم كلثوم بين ..
أحمد رامى والسنباطى وعبدالوهاب !

إنها المطربة الموهوبة التى أثبتت
أن الغناء فن رءوس وقلوب » .

عباس محمود العقاد .

ليس صحيحا أن أغنية « أنت عمرى » كانت أول لقاء فنى بين أم كلثوم وعبدالوهاب !
لقد أذيعت الأغنية فى ٦ مارس سنة ١٩٦٤ .

ولكن ام كلثوم وعبدالوهاب غنيا معا قبل هذه الأغنية بـ ٣٧ سنة بل ان محمد عبدالوهاب لحن أغنية اخرى ، غنتها ام كلثوم قبل « انت عمرى » بعشرين سنة !

لقد غنيا معا فى سنة ١٩٢٧ .

كان أول لقاء بين المطربة « ذائعة الصيت » أم كلثوم ، وبين المطرب « الشاب » محمد عبدالوهاب .

تم اللقاء فى منزل والد المهندس أبوبكر خيرت . ان صاحب المنزل كان من هواة الموسيقى والغناء . وكان بيته مقرا دائما لندوات أهل الفن وسهراتهم .

وفى احدى تلك السهرات تصادف وجود ام كلثوم ومحمد عبدالوهاب .

و . . غنيا معا !

غنيا مونولوجا ـ مشهورا وقتها ـ من أوبريت « العشرة الطيبة » التى وضع الحانها سيد درويش . وكان المونولوج من كلمات بديع خيرى . تقول الكلمات :

على قد الليل م يطول . .
مسترضى بسهرى ونوحى . .
وفى حبـــك ياللى . .
من أول ما اشـوفك . .
تترد روحى . . .

والمونولوج عبارة عن مناجاة غنائية بين فتى وفتاة .

وقد تبادلت أم كلثوم الغناء فيه مع عبدالوهاب . وسمعها ليلتها عدد كبير من أهل الفن ، ومن بينهم حسن أنور وكيل معهد الموسيقى وقتها ، ومصطفى رضا .

وحاول الحاضرون تحويل هذه المحاولة إلى عمل مشترك يستمع إليه الجمهور . . .

ولكن المحاولة لم تنجح . ● ● ●

وفى سنة ١٩٤٤ غنت أم كلثوم من تلحين عبدالوهاب !

لقد تمت هذه المحاولة فى سهرة ضمت توفيق الحكيم وفكرى أباظة والدكتور عبدالوهاب مورو وكامل الشناوى والممثلة ـ وقتها ـ كاميليا ـ ثم . . . أم كلثوم وعبدالوهاب .

وفى السهرة سألت أم كلثوم كامل الشناوى : الم تحرك فيك « كاميليا » موهبة الشعر ؟

ورد كامل الشناوى بقصيدة يقول فيها :

لست أقوى على هـواك ومالى
أمل فيك . . فارفقى بخيالى
ان بعض الجمال يذهل قلبى
عن ضلوعى . . فكيف كل الجمال

ليلتها قالت أم كلثوم انها مستعدة لغناء القصيدة لو لحنها عبدالوهاب . . وبالفعل . . أمسك عبدالوهاب بالعود ، ولحن الكلمات . . التى ظلت أم كلثوم تغنيها ـ بناء على طلب الحاضرين ـ حتى الصباح !

مرة أخرى لم تخرج هذه المحاولة إلى الضوء .

ولم تتم أيضا محاولات أخرى بذلها عدد من أصدقاء لطرفين من الصحفيين ، على أن تصريحاتهما الصحفية كانت تفيض بمشاعر المجاملة والتمنيات الطيبة .

كانت أم كلثوم تقول : ان عبدالوهاب يكتفى بأن يلحن لى على صفحات الجرائد . .

وكان عبدالوهاب يقول : اننى اعتقد أن أم كلثوم لا تريد أن الحن لها .

لم يكن أيهما يثق فى الآخر بما يكفى بعد لانتاج عمل غنائى مشترك . لماذا . . ؟

فى الواقع توجد تفسيرات كثيرة لذلك . ولكن التفسير الوحيد المقبول هو تفسير بسيط . هذا هو : أن عبدالوهاب ـ فى مرحلته الفنية الأولى ـ كان فى الدرجة الأولى مطرب . . وفى الدرجة الثانية ملحن . كان عبدالوهاب ملحنا خصوصيا لعبدالوهاب . انه بالطبع ـ سيحتجز أحسن الحانه لنفسه !

وفى نفس الوقت كانت ام كلثوم مطربة . هى تغنى للجمهور ، وعبدالوهاب يغنى للجمهور . هى تقف على المسرح ، وهو أيضا يقف على المسرح . . الخ .

وعلى ذلك فمن المتصور أن يوجد بينهما شعور بالمنافسة . احيانا منافسة حادة . وهى فى كثير من الأحيان منافسة يغنيها وينميها كثير من المحيطين بالطرفين .

● ● ●

ثم تغير الحال . .

تراجعت مقدرة عبدالوهاب الأولى كمطرب إلى الدرجة الثانية ، وحلت محلها مقدرته كملحن . مرحلة أخرى دخلها عبدالوهاب والملحن ـ أى ملحن ـ عندما تصبح أصوات الآخرين هى وسيلته الوحيدة للوصول إلى الجماهير . . فإنه يبدأ فى التفكير بطريقة مختلفة .

ان الشعور بالمنافسة لن يمنعه الآن ، ولكن الشعور بالتكامل هو الذى يدفعه .

وبالنسبة لأى ملحن ـ فما بالك بعبدالوهاب ؟ ـ لا يوجد صوت اكثر اغراء من صوت أم كلثوم ، لا توجد وسيلة أخرى اكثر ضمانا للوصول إلى قلوب الجماهير . .

من هنا بدأت طبيعة العلاقة الفنية بين أم كلثوم وعبدالوهاب . . تتغير .

ولكن العلاقة ـ حتى سنة ١٩٦٣ ـ لم تكن قد تغيرت بعد بما يسمح بتعاونهما معا . ان آثار سنين طويلة مضت . . لم تكن قد زالت تماما بعد .

● ● ●

ثم تغير الحال مرة أخرى فى يوليو سنة ١٩٦٣ .
ففى احتفال ٢٣ يوليو من تلك السنة أقام نادى الضباط حفلة ساهرة حضرها الرئيس جمال عبدالناصر . وكانت أم كلثوم وعبدالوهاب من بين المشتركين فى الحفل .
وفى الاستراحة دعاهما الرئيس جمال عبدالناصر إلى تناول العشاء على مائدته .
وقال جمال عبدالناصر لأم كلثوم وعبدالوهاب : أين الأغنية التى نقرأ فى الصحف أن أم كلثوم ستغنيها ويلحنها عبدالوهاب ؟ ألم يحن الوقت بعد لكى تتحول الأغنية من كلام تكتبه الصحف . . إلى كلام يغنيه الناس ؟ !
ان جمال عبدالناصر لخص فى سطرين امنية عاشها الجمهور أربعين سنة !
وخلال اسابيع قليلة كان العمل قد بدأ فى الأغنية الجديدة . كلمات اختارها عبدالوهاب أصلا لكى يغنيها هو . ولكنه عندما بدأ يلحنها اكتشف أن : « اللحن لن يستطيع التعبير عنه غير أم كلثوم » .
واتصل عبدالوهاب بأم كلثوم فقالت : لا مانع . تعال نبحث الأمر معا .
ثم . . خرجت غنية « انت عمرى » إلى الناس . خرجت كبداية فى تعاون مشترك اتخذ من يومها بين أم كلثوم وعبدالوهاب .

● ● ●

والواقع ان ألحان عبدالوهاب لأم كلثوم تمثل مرحلة مختلفة فى تاريخها الفنى . ان عبدالوهاب نقل مستوى منافسة الملحنين على صوت أم كلثوم إلى نقطة اكثر ارتفاعا . بل ان عبدالوهاب كان حريصا على أن يجعل المقدمات الموسيقية لأغانى أم كلثوم كعنوان الكتاب ، كخطاب العرش . فى خطاب العرش يتعهد رئيس الوزراء امام الملك بأن حكومته ستعمل كذا وكذا ، انه يعطى هذه الوعود بعد أن يهاجم كل الحكومات السابقة . انه خطاب ملىء بالوعود والآمال . ومقدمات عبدالوهاب الموسيقية فى أغانى ام كلثوم هى أيضا جدول أعمال . . قائمة وعود موسيقية طويلة !
ولقد قال لى عبدالوهاب أكثر من مرة : « ان صوت أم كلثوم يتميز



محمد عبد-الوهاب فى كابينة أم كلثوم فى رأس البر

بأن قماشه عريض . ان فيه جمال القوة وحلاوة القفلة ورقة الجمال

وعندما سألت أم كلثوم عن تعليقها قالت : هذا رأى عبدالوهاب .

— يعنى ايه ؟

— يعنى رأى عبدالوهاب !

— أنا عايز رأيك انت فى رأى عبدالوهاب . . .

— لا أحب أن أتكلم عن نفسى . ان « نفسى » هى ابغض كلمة إلى نفسى !

● ● ●

وعبدالوهاب يرى أيضا أن « لأم كلثوم فضلين : فضلا كمغنية . . . إذ أنها جمعت من مواهب المطرب كل ما يمكن للطاقة البشرية أن تجمعه . وفضلا آخر كمساهمة بعقلها فى رفع مستوى كلمات الأغانى فى مصر والشرق . . فلولا عقليتها الواعية لما استطاعت ان تحتضن مثلا الشاعر أحمد رامى ، وأن تجعله يتعاون معها ويجود بالمعانى الرائعة التى تؤديها أم كلثوم أحسن أداء » .

وبينما نجد أن محمد عبدالوهاب هو أحدث ملحن تعاونت معه ام كلثوم . . فإن أحمد رامى كان أول شاعر تعاون معها فى تاريخ مبكر من حياتها الفنية .

لقد غنت أم كلثوم لأحمد رامى . . قبل أن تراه .

ان أحمد رامى سافر إلى باريس فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ موفدا فى بعثة دراسية من دار الكتب المصرية .

وقبل سفره اعطى لصديقه الشيخ ابوالعلا محمد قصيدة تقول :

الصب تفضحــــه عيــونه وتنم عن وجـــد شــئونه
أنا تكتمنـــا الهــــوى والـداء اقتــله دفينـــه
يهتاجنـا نـوح الحمـــا م وكم يحركنـــا انينـــه

وعاد رامى من باريس سنة ١٩٢٤ ليجد ان قصيدته قد تحولت إلى اغنية مشهورة لحنها الشيخ أبوالعلا . اغنية تغنيها ام كلثوم .

ولم تكن أم كلثوم قد اقامت فى القاهرة بعد . كانت تاتى إلى القاهرة للغناء فقط ثم تعود إلى قريتها او تغنى فى مدن اخرى .

وظل رامى ثلاثة أيام يسال عن ميعاد أول حفل تغنى فيه ام كلثوم .

ان أحمد رامي قد ينسى تاريخ ميلاده . . ولكنه لا ينسى تاريخ أول لقاء له مع أم كلثوم .

٢٤ يوليو سنة ١٩٢٤ .

في تلك الليلة اشترى الشاعر الشاب ـ الموظف بدار الكتب ـ أحمد رامي تذكرة بخمسة قروش دخل بها صالة سانتي في حديقة الأزبكية حيث بدأت أم كلثوم تغني .

ويقول رامي : « كنت تواقا إلى ان أسمع أم كلثوم وهي تغني قصيدتي . انها لا تعرفني بعد . . ومع ذلك قمت في استحياء اقول لها كانها تعرفني :

ـ انا بقالي سنتين بعيد عن مصر . . ونفسي أسمع قصيدتي !

وبسرعة بديهة ردت أم كلثوم ضاحكة : أهلا سي رامي . . حمدالله ع السلامة . حاضر ! »

وعندما بدأت ام كلثوم تغني . . اصبحت أنا في عالم آخر . . سحرني الصوت . سحرني جماله . سحرتني قوته . ولم افق إلا على صوت صديق لي يقول لي بعد الغناء : أم كلثوم مسافرة بكرة تغني في رأس البر . . مش تسلم عليها ؟ !

وذهبت لأشكرها واتمنى لها السلامة .

ثم بقيت طوال الأربعين يوما التالية لا استطيع سماع صوت آخر يغني . إلى أن عادت أم كلثوم مرة اخرى لتحيي ليلة في كازينو البوسفور . .

مرة أخرى جلست صامتا في مقعدي كالمسحور .

ولكني في هذه المرة عبرت عن شعوري في قصيدة كتبتها عن صوت ام كلثوم اقول فيها :

صوتك هاج الجوى في مسمعي	وأرسل المكنون من أدمعي
فيه صبابتي وفيه الضنى	يشكو تباريح فؤادي معي
نظمت اشعاري وغنيتها	منظومة الحباب من أدمعي
كانما لفظك في شدوه	منحدر من دمعي الطيع

ولم تسمع أم كلثوم هذه القصيدة إلا عندما زرتها لأول مرة في شهر أكتوبر من تلك السنة . يومها فوجئت بطلب غريب من أم كلثوم .

قالت لى : أريد منك أن تنظم لى أغنية زجلية !

وتوقف لسانى عن النطق ! هذا طلب لا أستطيعه ولا أقبله ! اننى حتى تلك اللحظة لم أكن قد نظمت شطرا واحدا من الزجل . وحتى تلك اللحظة كنت قد أصدرت ثلاثة دواوين من الشعر ونشرت ترجمة لرباعيات الخيام عن الفارسية . لا لا . لن أكتب زجلا !

ولكن أم كلثوم استمرت فى الحديث . قالت : اننى غنيت لك من قبل قصيدة : « الصب تفضحه عيونه » . وأنا أرى أن من حق الغناء أن يظفر بخيال الشعراء فى أسلوب يفهمه العامة . حل وسط . والا . . هل يعجبك مستوى الأغانى التى تغنى فى هذه الأيام ؟ !

عند هذه النقطة اقتنعت . وافقت على أن أكتب الزجل لأول مرة . لهذا كتبت لها : « خايف يكون حبك ليه شفقة عليه . . . وانتى اللى فى الدنيا ليه ضى عنية » .

ثم استمررت فى كتاباتى لأم كلثوم . شعر مرة . . وزجل مرة . بعدها غنت لى أم كلثوم : « ياغائبا عن عيونى وحاضرا فى فؤادى » ـ « أيها الفلك على وشك الرحيل » ـ « يانسيم الفجر ريان الندى » . . إلى أن غنت لى : « ان كنت أسامح وأنسى الأسية » . وهى الأغنية التى مثلت فى وقتها طفرة غنائية » .

● ● ●

انتهت ذكريات رامى . ولكن علاقته الفنية بأم كلثوم لم تنته . فلقد غنت له أم كلثوم أكثر من مائتين وخمسين قطعة غنائية من بينها « رق الحبيب » و « ياما أمر الفراق » و « ياظالمنى » و « سهران لوحدى » و « رباعيات الخيام » و « انت الحب » . . الخ

ولكن رامى ـ فوق علاقته بأم كلثوم كشاعر له علاقة أخرى بها كمستمع .

فمنذ استمع إليها لأول مرة سنة ١٩٢٤ ، لم تفته أى حفلة من حفلاتها الغنائية . لقد أصبح حريصا على أن يكون « مستمعها الأول » . هذا تعبير رامى .

وعندما كانت أم كلثوم تغنى فى الأقاليم لم يكن غناؤها ينتهى قبل الثانية صباحا . فكان رامى يخرج من الحفلة جريا إلى محطة السكة الحديد حتى يلحق بقطار الصحف ويعود إلى عمله بالقاهرة فى الصباح الباكر .

● ● ●

وحينما بدأت أم كلثوم تسجل للاذاعة في الثلاثينات . . كانت تأخذه لكي يستمع إليها أثناء التسجيل في الاستوديو ، بشرط أن يجلس صامتا تماما . كانت أم كلثوم تفعل ذلك حتى يكون رامي أمامها رمزا للجمهور في خيالها ، جمهور صامت .

وكان رامي ـ طوال عمله بدار الكتب ـ يستعير لأم كلثوم من الدار كل دواوين الشعر العربي القديم وكتب الأدب . . ثم يناقشانها معا . وقد أشارت أم كلثوم لمجهود رامي هذا في مكان آخر .

اما أحمد رامي فيقول : « . . . انني مدين لأم كلثوم بنشر شعري . ان أقصى رقم وزع من أي ديوان طبعته كان خمسة آلاف نسخة . ولكنني أصبحت معروفا للملايين من خلال صوت أم كلثوم . ان اسطوانة « ان كنت اسامح » مثلا وزعت أكثر من نصف مليون نسخة » !

ويقول رامي أيضا : انني كنت استفيد كثيرا من التعديلات التي تطلبها أم كلثوم فيما اكتبه . ففي أغنية « دليلي احتار » مثلا ، طلبت أم كلثوم تكرار جزء من المطلع يقول : وبين قربك وخوفي عليك . . دليلي احتار . . وحيرني .

وفي أغنية « قصة حب » كنت قد كتبت بيتا أقول فيه :
عشت فيها بيقيني ثم عاشت في ظنوني .

ولكن أم كلثوم قالت ان هذا البيت فيه فجوة . وانه يحسن أن أوضح كيف عشت في ذكرياتي بيقيني ، ثم كيف عاشت هذه الذكريات في ظنوني . ولذا أعدت كتابة البيت فأصبح كما يعرفه الناس الآن

عشت فيها بيقيني وهي قرب ووصال
ثم عاشت في ظنوني وهي وهم وخيال

والواقع ان رامي معه الحق في نقطتين بالذات :

● ان أم كلثوم نشرت بغنائها الذوق الرفيع في اللغة .
● ان شخصية أم كلثوم تمتد إلى الكلمات التي تغنيها .

لقد لخص عباس محمود العقاد هاتين النقطتين عندما كتب يقول عن أم كلثوم « . . انها المطربة الموهوبة التي أثبتت ان الغناء فن رءوس وقلوب وليس بفن حناجر وأفواه فحسب ، فهي تفهم ما تغنيه . وتشعر بما تغنيه ، وتعطيه من عندها نصيبا وافيا إلى جانب نصيب المؤلف ونصيب الملحن » . . .

واستطيع أن أقول كلمات العقاد بطريقة أخرى : ان أغاني أم كلثوم

هي الصدى الصوتي لأم كلثوم . أما الكلمات ـ كلمات الأغاني ـ فهي الصدى العقلي لأم كلثوم .

لقد غنت أم كلثوم للحنين كثيرين : الشيخ أبوالعلا ـ داود حسني ـ فريد غصن ـ أحمد صبرى ـ محمد القصبجي ـ زكريا أحمد ـ السنباطي ـ عبدالوهاب ـ بليغ حمدي ـ محمد الموجي ـ الطويل .

وغنت لشعراء كثيرين : أحمد شوقي ـ حافظ ابراهيم ـ رامي ـ بيرم التونسي ـ ابراهيم ناجي ـ أحمد شفيق كامل ـ مرسى جميل عزيز ـ عبدالوهاب محمد ـ جورج جرداق . . الخ

وفي كل مرة كان عقل أم كلثوم يتحول إلى معمل . إلى جهاز يقارن ، يختار ، يعدل ، يضيف ، يحذف ، يقرر . .

لقد عدلت مثلا في كلمات الشاعر أحمد شوقي . قصيدة « إلى عرفات الله » مثلا . يقول المطلع الأصلي : عليك صلاة الله يا ابن محمد . الاشارة هنا إلى الخديو . ولكنها غنته : عليك سلام الله ياخير زائر . وفي نفس القصيدة اصطدمت بكلمة : « العرصات » . كلمة قد يستهجنها البعض فاستبدلتها بكلمة : الشرفات .

وفي قصيدة ابراهيم ناجي : « الأطلال » اضافت إلى القصيدة الأصلية هاتين الشطرتين :

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيـــال حولنا

ثم هذا البيت :

وانتبهنا بعد ما زال الرحيق وأفقنـــا . ليت أنا لا نفيق

لقد كتب الشاعر هذين البيتين أصلا في قصيدة أخرى بعنوان « الوداع » . ولكن أم كلثوم أضافتهما إلى قصيدة « الأطلال » وبطريقة لا تستطيع اكتشافها من أول مرة .

ان الأمثلة كثيرة . . .

والمهم ليس هذا التعديل . المهم ان يكون التعديل إلى أحسن . إلى أرق . .

ان أم كلثوم في حرصها على تعديل ـ ثم اعادة تعديل ـ الكلمات قبل ان تغنيها انما تضع أيدينا على مفتاح آخر لفهمها . جانب آخر من شخصيتها الغنائية . جانب لم يكتشفه حتى الآن غير عدد قليل من الذين عملوا معها . .

ان ما تبحث عنه أم كلثوم هو الشيء الجديد . تبحث عن فكرة ، معنى ،

معنى ، تعبير ، جملة ، أو ـ حتى ـ كلمة ؟ انها تفعل ذلك نيابة عن مستمعيها . صفة ضرورية جدا لكل مطرب يريد النجاح ، أو الاستمرار فى النجاح .

اما كلثوم يعجبها مثلا تعبير تقول فيه « بافكر فيك . . وانا ناسى » أو « عزة جمالك فين . . من غير ذليل يهواك » أو « واحشنى وانت قصاد عينى » أو « اغمض عينيك حتى ترانى » اعجبها اغنية تتلاعب فيها بكلمات تقول « يسقينا الهنا . . ويقول بالهنا » أو « ياما عيون شاغلونى . . لكن ولا شغلونى » . . .

تعجبها صورة دقيقة الظلال يرسمها الشاعر بقوله :

ما بين بعـدك وشـوقى إليـك
وبين قربـك وخـوف عليـك
دليـلى احتـار . . وحـيرنى

تعجبها صورة تركز صراعا نفسيا حادا فى أربع كلمات تقول : « غلبت أصالح فى روحى » أو فى خمس كلمات تقول « أكاد أشك فيك وانت منى » . . .

أم كلثوم تحب أن تتذوق التعبيرات القوية المركزة . تعبيرات مثل « ظالم الحسن » أو « هل رأى الحب سكارى مثلنا » أو « الثوانى جمرات فى دمى » ، تعبيرات تصور نفس المعنى باسلوب مختلف . مرة بقولها « انت أقرب منى ليه . . حتى وانت بعيد عليه » ، ثم مرة أخرى « وانت معايا يصعب عليه . . رمشة عينيه ولا حتى ثانية » . .

لهذا السبب أقول أن مفتاح الشاعر إلى صوت أم كلثوم هو عقلها . والمفتاح إلى عقلها هو الكلمة الجديدة . . الجملة الجديدة . . الصورة الجديدة . مسالة عبر عنها أذكى صديق لأم كلثوم بقوله : « . . لو كنت شاعرا لكتبت ديوانى على شفتى أم كلثوم . . لسوء حظ ، فالكاتب هنا ليس شاعرا ، ومع ذلك فهذا اجمل تعبير قراته لكاتب عن أم كلثوم . .

والواقع ان محاولة أم كلثوم للتذوق لا تقتصر على الكلمات التى تغنيها فقط ، وانما تمتد إلى اللحن ايضا . وأن زكريا احمد ـ الفنان الموهوب الراحل ـ عندما عبر عن ذلك فى مذكراته كتب يقول أن أم كلثوم « . . عندما تجلس إلى ملحن أغانيها أو يجلس إليها ، لا تكتفى بأن يقدم لها لحنا واحدا أو اثنين أو ثلاثة . . وانما هى تريد أكثر من ذلك . وقد تطلب من الملحن أن يلحن الكوبليه الواحد مرات متعددة ،

وتتظاهر بعدم قبول هذه الألحان . . وتتظاهر بعد أن تختار واحدا من الألحان المقدمة بنسيان ما قدم للأغنية الواحدة من الحان . . وتجدد فى معظم الأغانى بألحان جديدة تبدو للمستمع الجديد انها وليدة الساعة . . وإن كانت مخزونة فى أعماق ذاكرتها من بعيد » . .

مرة أخرى يكتب زكريا أحمد قائلا « . . وذات مرة قدمت لها أغنية بثمانية ألحان مختلفة ، لأتيح لها فرصة الاختيار فى الوقت المناسب أو فى الأوقات المناسبة . اننى اعتبر ان أم كلثوم (أسطى) من خيرة (اسطوات) الفن . . وصائغة من أمهر صائغات الغناء . . ولهذا فقد اختصصتها بأكثر من ستين لحنا فيها لحن يشبه الآخر فى تلحينه » . .

والواقع أن زكريا أحمد لحن لأم كلثوم عددا من أروع وأحب أغانيها عند الناس . . لحن لها « أنا فى انتظارك » و « أهل الهوى » و « الأمل » و « غلبت أصالح فى روحى » و « الآهات » و « هو صحيح الهوى غلاب » و « رق الحبيب » . . الخ

وخلال أحاديث طويلة متعددة لمست من أم كلثوم وفاء بالغا لعدد من الذين صاحبوها فى حياتها الغنائية ، من بينهم - بل على رأسهم - زكريا أحمد . . شعور تبادله زكريا أحمد معها منذ أول لحنين قدمهما لها فى سنة ١٩٢٥ وهما « اللى حبك يا هناه » من تاليف أحمد رامى و « هو ده يخلص من الله » تاليف بديع خيرى .

من هذا اليوم - يقول زكريا أحمد فى مذكراته - اصبحنا « . . القصبجى وداود حسنى وأنا نلحن لها حتى قدم لها مسيو بارو مدير شركة أوديون الأستاذ رياض السنباطى - ومنذ هذا اليوم أصبح ملحنو أم كلثوم هم السنباطى والقصبجى وأنا » . . .

السنباطى . . ؟ !

نعم . . هذا هو الاسم الذى كتبه زكريا أحمد ، ان هذا الاسم مضلل . انه لا يدل بأى حال على كل الرقة ، كل الجمال ، الذى تعبر عنه الحان السنباطى لأم كلثوم ، ان أم كلثوم تؤمن بالتخصص ويبدو أن هذا هو السبب فى انها تسند إلى السنباطى القصائد الصعبة - أحيانا الصعبة جدا - لكى يقوم بتلحينها .

لقد التقت أم كلثوم بالسنباطى وهى صغيرة ، فى الواقع انها كانت ليلة ممطرة على محطة سكك حديد الدلتا فى قرية قرين بالدقهلية كانت أم كلثوم ما تزال فتاة صغيرة تضع العقال فوق رأسها وفى تلك الليلة

وقفت بين أبيها وشقيقها وقدم والد رياض السنباطي وبرفقته ابنه رياض ، ان الأبوين الشيخين كانا يتحدثان معا عن الرزق فالغناء هو ميدان عمل كل منهما . بعد تلك الليلة لم يلتق السنباطي بأم كلثوم إلا بعد سنوات عديدة في شركة كايروفون . . حيث كان السنباطي قد أصبح يعمل مدرسا بمعهد الموسيقى العربية . . وأم كلثوم نجمة مشهورة في المنطقة بأسرها ، من هذا اللقاء بدأت ألحان السنباطي لأم كلثوم . . واستمرت حتى الآن ، ألحان تتفوق على نفسها . خذ مثلا لحن « الأطلال » أو « دليلي احتار » أو « هلت ليالى القمر » أو « ياللى كان يشجيك أنيني » أو « رباعيات الخيام » أو « هجرتك » خذ أيضا أغنية « ياظالمني » وقصيدة « ولد الهدى » وأغنية « لسة فاكر » و « أروح لمين » و « سهران » . . آه . . تصور أن السنباطي وضع لحن أغنية « سهران » في سنة كاملة هذا هو السنباطي . لحن واحد كل

بعد أن يضع السنباطي اللحن تبدأ جلساته مع أم كلثوم . هذه كلماته هو : « أحيانا نجلس في حجرتها الزجاجية إذا كنا في الشتاء نهارا كاملا بلا طعام ، بلا ماء ، بلا تليفون ، بلا زوار ، ان أم كلثوم تستغرق الوقت كله في إجراء بروفة على كوبليه واحد فقط ، فأم كلثوم لا تغني اللحن العادى أو الكلام العادى . فاللحن الذى يوضع لأم كلثوم أشبه ببناء السد العالى ، وتمر الأيام على هذا المنوال أسابيع ثم شهورا نضع فيها لحنا يخرج إلى الجماهير فنلقاه بالحب

ان أم كلثوم تسمى السنباطي بالعبقرى . وفى أكثر من مرة كنت ألمس منها تساؤلها عن السبب في أن الصحف لا تعطى للسنباطي حقه من التقدير كما تعطى لغيره . ما زال التساؤل قائما . .

ان محمد القصبجي وزكريا أحمد ، ان عبدالوهاب والسنباطي ، أحمد شوقى وأحمد رامى ، ابراهيم ناجي وأحمد شفيق كامل ، بيرم التونسى ومأمون الشناوى . . كل هؤلاء – وغيرهم كثيرون – انما يضعون أيدينا في النهاية على عدة ملاحظات تتعلق بهذا الجانب من شخصية أم كلثوم . .

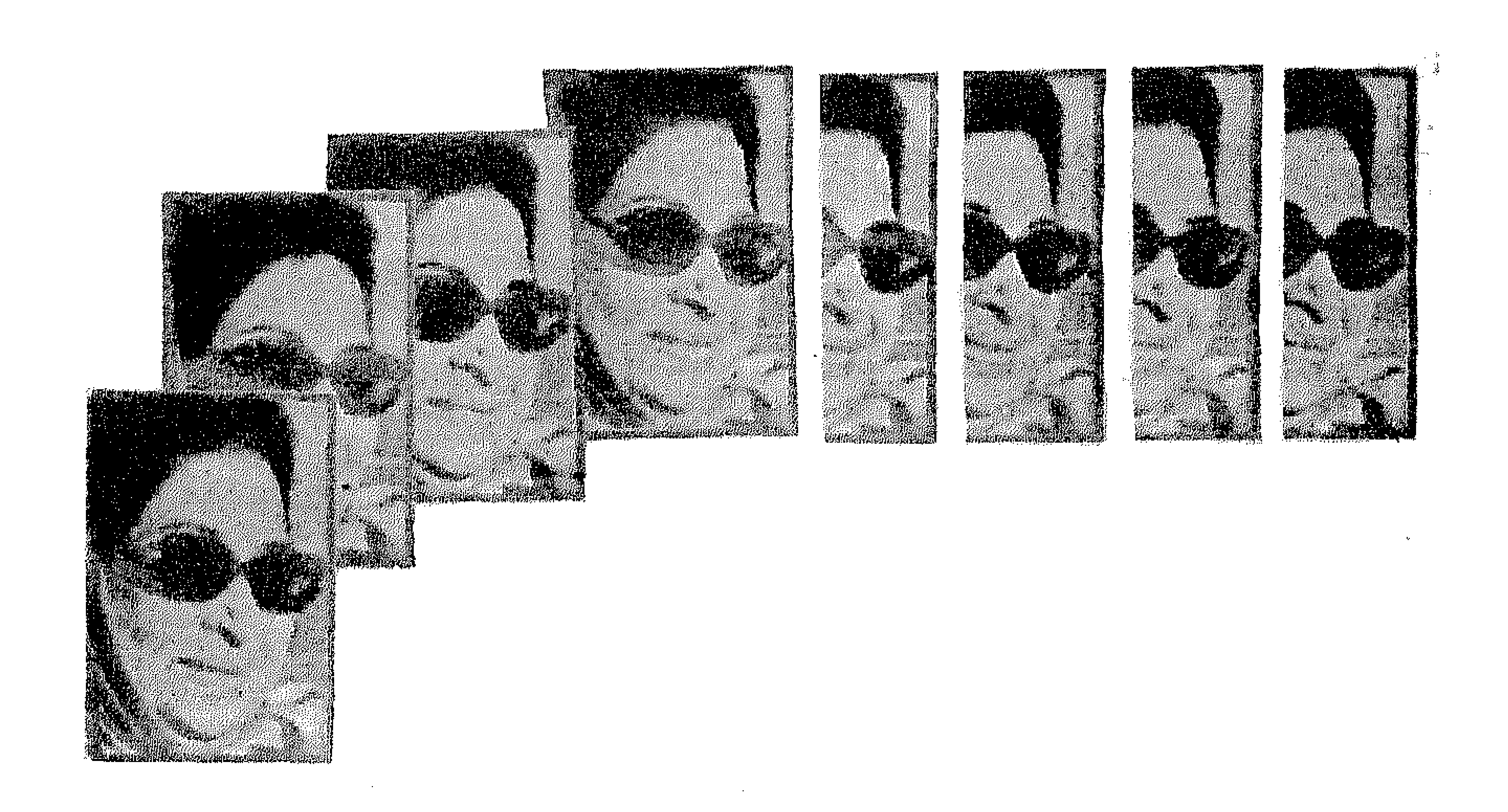
● فأولا : ان كل لحن ، كل قصيدة ، تغنيها أم كلثوم هى في الواقع قطعة من نسيج طويل متصل الخيوط . نسيج يمثل صدى أفكار ومشاعر أم كلثوم نفسها . انه صدى . . انه صورة . . انه اختيار . . انه تعبير من وعن شخصية أم كلثوم نفسها .

● وثانيا : انك لا تستطيع أن تقارن بين ملحن وملحن ـ بين شاعر وشاعر فبينما تغنيه أم كلثوم لكل منهما . لا تستطيع ، لأن المقارنات هنا ـ برغم فائدتها أحيانا ـ تصبح مضللة .

● وأخيرا . . فإن دراسة عدد من الملحنين والشعراء الذين تعاونوا مع أم كلثوم . . ما زال أمرا هاما بالنسبة لدراسة أم كلثوم نفسها . دراسة تمثل فى النهاية . . بابا خلفيا للشخصية التى تجمع بين هؤلاء جميعا : أم كلثوم . .



الراديو .. وأم كلثوم .. وأخبار مقاتلينا فى حرب الاستنزاف



أم كلثـــــوم ..
بــين الفــن والســياسة !

« ان أم كلثوم غنت وأحبت فاستمرت .. فى سنوات لا يستمر فيها أحد ! »

لكى نحب بلدنا . . يجب أولا أن تحبنا بلدنا . حب بغير شروط . بغير تحفظات . تماما كحب الأم لطفلها . ان الأم لا تحب طفلها عندما يكون هادئا ، وتكرهه عندما يكون شقيا . لا تطعمه عندما يطيعها ، وتجيعه عندما يخالفها .

لا . الأم تحب طفلها فى كل لحظة ، كل ساعة . كل سن . انها تحبه ـ ليس لأنه حقق لها رغباتها ـ ولكن لمجرد انه طفلها .

هذا يكفى . انها لا تستغل حاجته إليها . لا تستغل سلطتها عليه : انها لا ترهبه . لا تخيفه . ولكنها تغريه . تشجعه . تدفعه . انها تقدم له حبها بغير ثمن . بدون مقابل . بلا تعويض . انها تعطيه حبها خالصا . على بياض . .

و . . .

لقد أعطت بلدنا ـ أمنا ـ حبها لأم كلثوم على بياض . بلا تحفظات . هذا واحد من الأمثلة القليلة النادرة فى حياتنا العامة . استثناء . لقد تصرفت الأم هنا بحكمة . أحبت طفلتها بلا حدود . فكانت النتيجة ان الطفلة أحبت أمها . والفنانة أحبت جمهورها . و . . أم كلثوم أحبت بلدها . حبا بغير حدود . .

وخلال سنتين اثنتين دارت أم كلثوم حول الكرة الأرضية مرتين ! من باريس إلى المغرب . من تونس إلى لبنان . من السودان لليبيا .. من الكويت الى طنطا من المنصورة ودمنهور إلى الاسكندرية إلى القاهرة . .

وفى كل مرة كانت ام كلثوم تعود فيها إلى القاهرة كانت تعود بمبلغ ضخم فى يدها ، وحب ضخم فى قلبها . لقد غنى صوتها بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ غنى صوتها . . وجمعت يدها الحصيلة . .

الحصيلة هى مليونان من الجنيهات قدمتهما أم كلثوم لبلدها فى سنتين . تبرع اختيارى . مساهمة عاجلة . تبرع من الجمهور إلى فنانته . ومساهمة من الفنانة لبلدها .

ولكن حب أم كلثوم لبلدها أهم من تبرع جمهورها لها . العاطفة هنا اهم من النقود . القدوة أهم من المال .

ان مصر أحبت أم كلثوم بغير حدود ، فأحبتها أم كلثوم بغير حدود . عرفان بالجميل . تقدير لعواطف متراكمة . وفاء لحب سابق .

انك سوف تلمس مظاهر هذا الوفاء دائما فى كل حديث لأم كلثوم . عندما يهتف لها الجمهور فى المغرب مثلا فهى تقول : « . . . كل هذا الحب لمصر . كل هذا الهتاف من أجل مصر . . وليس من أجلى » .

قبلها تقول فى باريس : « انا مجرد مواطنة مصرية . لم أعمل شيئا أستحق عليه كل هذا النجاح . ان بلدى هو صاحب الفضل الأول فى نجاحى » . هكذا تقول أم كلثوم فى باريس . . فى السودان . . فى الكويت . . فى ليبيا . . فى لبنان ، فى كل بلد خارج الحدود تعبر أم كلثوم عن وفائها للحب الذى تلقته داخل الحدود . فى كل عاصمة تعلن انها عظيمة لأن شعبها عظيم . ساحرة، لأن بلدها ساحر . تكافح بصوتها لأن بلدها يكافح بسلاحه .

عند هذه النقطة ـ هذه النقطة بالضبط ـ انتقلت أم كلثوم إلى قمة أخرى . قمة ثانية . من قمة الغناء إلى قمة الوطنية . من قمتها كمغنية ، إلى قمتها كفرد عادى . تصور . . ! الفرد العادى يستطيع هو الآخر أن يكون قمة فى سلوكه ، فى عمله ، فى تصرفاته ، فى مساهمته لبلده .

لقد فعلت أم كلثوم ذلك فى المرحلة التى لم تعد تحتاج فيها إلى اثبات شىء جديد . انها تغنى ، وهى قمة حينما تغنى . انها فنانة ، وهى قمة فى فنها . . هذا يكفى . لا . . هذا لا يكفى . . كما أثبتت أم كلثوم . لقد تأكدت قيمتها كفنانة .

بقى أن تتأكد قيمتها كفرد عادى . هذا ضرورى فى فترة سوف يكون الفرد العادى هو بطلها . فترة بدأت بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .

ففى صراع مرير لتصحيح الهزيمة أمام اسرائيل سنة ١٩٦٧ ، سوف يكون الفرد العادى هو دائما البطل . هو القدوة . هو النموذج . انه ـ



أم كلثوم تتسلم الوسام والوشاح من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر . . ومحمد عبد الوهاب يساعدها فى ضبط الوشاح

بعمله ، بإجادته لعمله ، بقدوته فى سلوكه ـ سوف يحسم فى النهاية معركة طويلة ، ويسوى حسابا مفتوحا ، مع اسرائيل .

هنا بالضبط بدأت أم كلثوم تضرب المثل فى سلوكها كفرد عادى . لقد تراجع الفنان هنا إلى الخلف وافسح مكانه للفرد العادى . تراجع صوتها إلى مجرد وسيلة نحو هدف أكبر : تعبئة العواطف بالتضحية ، وتعبئة الخزائن بالنقود ، وتعبئة البنادق بالرصاص .

هنا بالضبط بدأت شخصية أم كلثوم تنمو فى اتجاه جديد . بدأت تنمو فى السن التى يتكور فيها الجسم ويتجعد الوجه وتتساقط الأسنان وتنطفىء الذاكرة . هنا تعود أم كلثوم شابة من جديد . .

فى السن التى تتدهور فيها الصحة ، وينكمش العقل ، وتضعف الرؤية ، وتتثاقل الخطوات . بدأت أم كلثوم تسرع خطوتها إلى هدف جديد . .

فى السن التى يتحول فيها الماضى إلى حاضر ، السن التى يبدأ فيها الانسان يجتر ماضيه ، يبدأ فى الحياة على سمعة ماضيه ، بدأت أم كلثوم تعيش على سمعة حاضرها ، وسمعة مستقبلها .

فى هذه المرحلة ، هذه السن ، هذه الظروف ، بدأت أم كلثوم تصعد من جديد إلى قمة جديدة . قمة خالية .

فى هذه المرحلة ، هذه الأيام ، بدأ الجزء الفنى فى شخصية أم كلثوم يتراجع إلى الخلف ، مفسحا مكانه إلى الجزء الأساسى فى شخصيتها ، الجزء الوطنى .

من الآن فصاعدا سوف تصبح مواطنة أولا ، وفنانة بعد ذلك ، المواطنة تقرر ، والفنانة تنفذ القرار .

من الآن فصاعدا سوف تغنى أم كلثوم . . ولكن لصالح تبرعات إزالة آثار العدوان . . أو لصالح تعمير مدن القناة . . أو لأى عمل يخفف عن بلدنا آلام الهزيمة ويساهم فى جهود النصر . .

من الآن فصاعدا تحرص أم كلثوم على أن تكون مصرية بنسبة ١١٠٪ ، بعد أن اثبتت انها فنانة بنسبة مائة فى المائة . تثبت بعملها ما غنته من قبل بصوتها : « بنى الحمى والوطن . . من منكمو يحبها مثلى أنا ؟ » . .

من الآن فصاعدا لن تكون أم كلثوم مجرد فرد . مجرد جسم . مجرد انسان تأكل وتنام وتغنى وتستريح البال . . لا . انها ـ من هذه الدقيقة ـ سوف تصبح مواطنة تفكر . وتحمل الهموم وتجمع القرش فوق القرش لكى يضع بلدها الرصاصة فوق الرصاصة .

من الآن فصاعدا سوف تجمع أم كلثوم كل قرش لكى تعطيه لبلدها . ألف جنيه ، عشرة آلاف جنيه ، مائة ألف ، نصف مليون ، مليون ، ٢ مليون جنيه ! هذا هو الرقم الذى وصلت إليه أخيرا التبرعات والايرادات التى جمعتها أم كلثوم خلال سنتين . تبرعات اختيارية . تبرعات قدمها الجمهور إلى بلده بوساطة أم كلثوم . قدمها خلال عشرين حفلة غنت له فيها أم كلثوم .

والسؤال الآن : لماذا ؟

لماذا كل هذا النجاح ؟

لماذا الآن . . . لماذا بهذه السرعة . . بهذا الاقبال ؟

ان جزءا من الاجابة سوف نجده فى شخصية أم كلثوم نفسها . ولكن الاجابة الكاملة سوف تجدها فى تفسير آخر .

تفسير فنى لعمل سياسى قامت به أم كلثوم .

لقد أعطت أم كلثوم نموذجا لما يستطيع الفنان ـ والفنان فقط ـ أن يفعله لبلده . نموذج شهده التاريخ من قبل مئات المرات . . وسوف يشهده مئات المرات . .

ان الفنان هو ـ فى الواقع ـ أكثر من يحب بلده من أبناء بلده . الفنان يستطيع أن يحب بلده فى ساعة حبا لا يستطيعه غيره فى سنه . الفنان ـ أديبا أو موسيقيا أو رساما أو كاتبا أو صحفيا أو مطربا ـ يستطيع أن يترجم لك الوطنية إلى أشياء بسيطة مفهومة . إلى هواء نقى تتنفسه ، وأرض حرة تعشقها . ان الجمهور عند الفنان سواء : الشاب والعجوز ، المرأة والرجل ، اليمينى واليسارى ، الرجعى والتقدمى . كل هذه التقسيمات تختفى من قاموس الفنان ليحل محلها تقسيم آخر مختلف : مواطنون يحبون بلدهم . . وأعداء يحتلون أرضهم . .

بهذا المعنى تتحول السياسة عند الفنان إلى شىء خال من التعقيد والفلسفة . السياسة هنا هى الدفاع عن الأرض . دافع عن

حياتك . عن سمائك . عن هوائك . عن بلدك . دافع عن أرضك .
فى هذه النقطة يقف الفنان فى المقدمة . انه ليس خلفنا ، ليس بجانبنا ، انه أمامنا ، لأن الفنان - يقول مكسيم جوركى - هو أكثر البشر التصاقا بالأرض .
لهذا السبب فإن الشخص عندما يصبح فنانا فإنه يتحول إلى نموذج . إلى رمز . رمز لكل ما هو جميل وباق ومحبوب ومستمر فى بلده .
ولقد بدأت شخصية أم كلثوم تحمل هذه البذور منذ فترة طويلة مضت ، لقد دخلت إلى المسرح تغنى مرة فى شهر فبراير سنة ١٩٤٩ ، ولكنها قبل أن تغنى فوجئت بضابط يستوقفها ليقدم إليها خطابا مغلقا . ما هذا الخطاب ؟ ماذا بداخله ؟ ورقة ؟ آه . . ما هو المكتوب فى الورقة ؟ مش معقول . . انه رجاء يقدمه إليها ضباط وجنود الفرقة المصرية المسلحة التى يحاصرها الاسرائيليون فى الفالوجة « نريد أن نسمع منك فى حفل الليلة المذاع بالراديو أغنية غلبت أصالح فى روحى » ! قطعة غنائية تحولت إلى مهمة وطنية . ليلتها قطعت أم كلثوم وصلتها الأولى لتقدم الأغنية المطلوبة كما لم تغنها من قبل . .
وفى حرب ١٩٥٦ كانت القنابل تتساقط على محطات ارسال الاذاعة ، والأنوار مطفأة داخل استوديوهات الاذاعة نفسها ، ولكن أم كلثوم دخلت الاستوديو لتحفظ أغانيها للمعركة وتسجلها على ضوء الشموع .
وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ لم تنتظر أم كلثوم الدعوة من أحد لكى تؤدى دورها - واجبها - كمواطنة ، كفرد عادى . لقد بادرت بالدعوة إلى اقامة تجمع وطنى للمرأة المصرية . . تجمع يساهم بأى مجهود لترميم - ثم تعبئة - المشاعر الوطنية للمرأة المصرية بعدها قادت الحملة لجمع تبرعات المواطنين ، الذهب ، الأموال الهدايا . . أى مبلغ ، أى هدية ، أى رمز . . يكفى للتعبير عن مساهمتك لبلدك . . دور بدأته أم كلثوم مبكرا بعد النكسة . ما زال الدور مستمرا . .
وفى كل الأحيان كان المعنى أكبر من المبالغ المتجمعة ، الرمز أكبر من المال . خذ مثلا تلك العروس التى ذهبت لتحضر حفل أم كلثوم بمدينة المنصورة (فبراير ١٩٦٨) حفل أقامته أم كلثوم لصالح تبرعات إزالة

آثار العدوان . . ان العروس قدمت دبلة زواجها لكى يجرى عليها مزاد فى الحفل ، وفى لحظات تسابق الجميع على شراء الدبلة دون ان يسترد أحدهم الرقم الذى عرضه ونسخه آخر ، ان الدبلة ثمنها جنيه ، ولكنها بيعت بألفى جنيه ! . .

وقبل أن تمضى خمس دقائق على هذا الرقم فكرت طفلة صغيرة كانت تحضر نفس الحفل ، لقد تقدمت الطفلة بحفنة من تراب المنصورة فى كيس صغير من الحرير لكى يجرى عليها المزاد بنفس الطريقة التى جرى بها على دبلة العروس ، فى لحظات بيعت حفنة التراب بثلاثة آلاف جنيه . . هذا ترابنا . . أرضنا . . نفديها بمالنا . . بحياتنا . . هذا هو المعنى الذى استطاع الفنان ـ استطاعت أم كلثوم ـ أن تحوله إلى رمز ونموذج . .

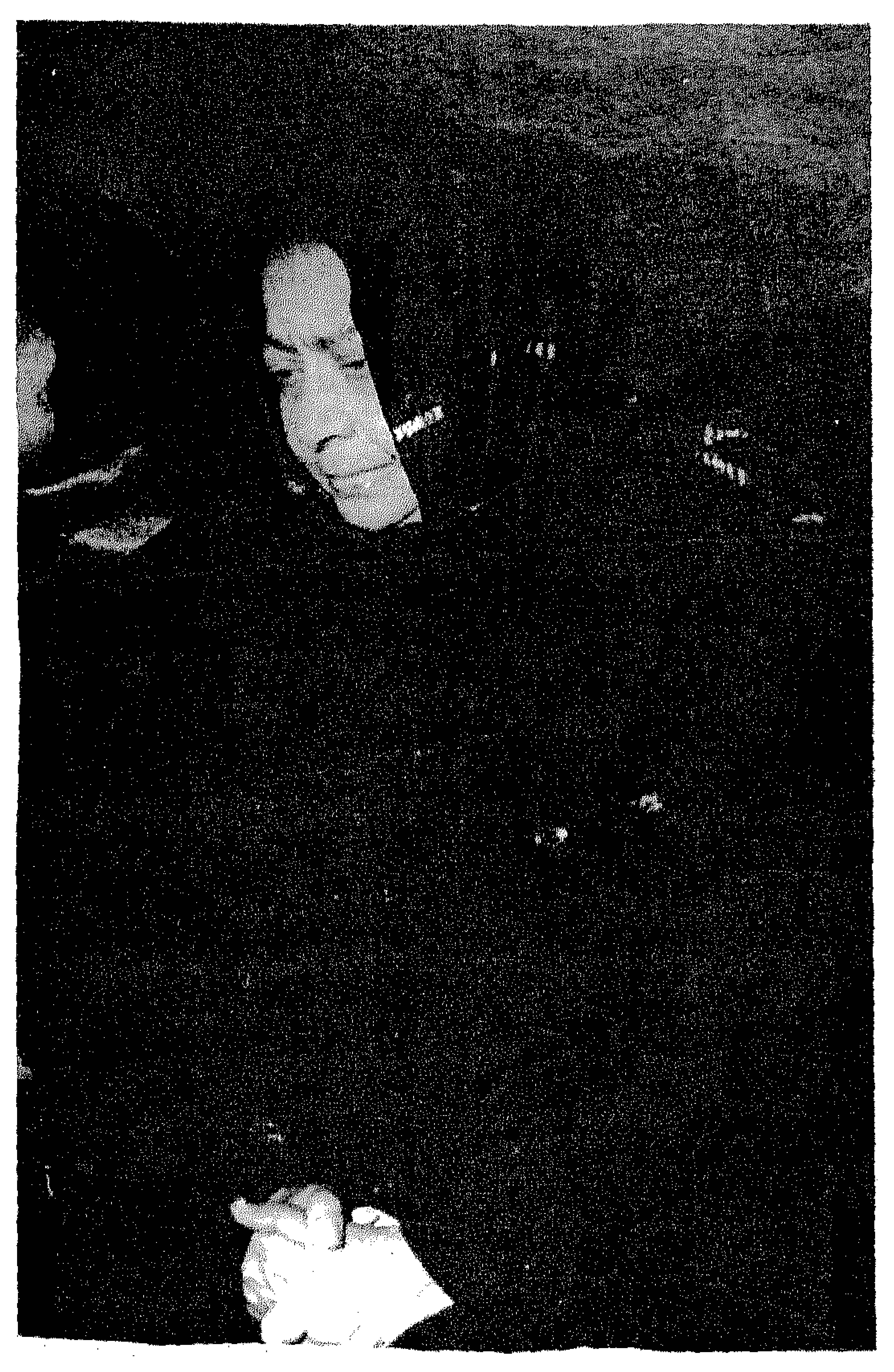
و . . .

هذا هو الجانب الآخر فى شخصية أم كلثوم ، الجانب الذى يجب أن ينتهى إليه كل تقييم لأم كلثوم ، لقد تابعنا ـ طوال صفحات الكتاب ـ شخصية أم كلثوم من زوايا عديدة : أم كلثوم عندما تغنى عندما تختار ما تغنيه ، وعندما تستريح مما تغنيه ، أم كلثوم على المسرح . . وفى البيت . . مع المستمع . . ومع الشاعر والملحن . ثم ـ الآن ـ أم كلثوم كشخصية وطنية ، كفرد عادى . .

انها جوانب مختلفة من حياة أم كلثوم وشخصيتها ، ان الصفحات السابقة قامت « بتفكيك » شخصية أم كلثوم وحياتها . والصفحات القادمة ستحاول اعادة ربط شخصية أم كلثوم وحياتها من جديد .

ان ما يهم فى حياة أم كلثوم ليس الطريقة التى ترويها بها : ولكن الطريقة التى عاشتها بها . ان ما تحتاج امرأة أخرى إلى اختراعه . . جربته هى . . ما تنسجه أخرى من الخيال . . مارسته هى . . ما تحلم بنصفه اى امرأة . . حصلت عليه أم كلثوم كاملا ، انها غنت كما لم يغن أحد ، فاستمع إليها الجمهور كما لم يستمع لأحد ، ان بلدها احبها كما لم يحب أحدا ، فأحبت هى بلدها كما لم يحبه أحد ، انها ـ باختصار ـ غنت وأحبت فاستمرت . . فى سنوات لا يستمر فيها أحد ! .

● ● ●



قطعت أم كلثوم رحلتها إلى موسكو حينما علمت بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر . وخرجت من مطار القاهرة إلى بيته لتقدم العزاء إلى أسرته .

ان السبب فى هذا كله كان بسيطا بقدر ما كان صعبا : انها استطاعت أن تلخص وتركز وتمثل مشاعر جمهور كامل على امتداد جيلين أو ثلاثة ، ظاهرة مألوفة فى حياة كل شعب ، ففى أوقات معينة من التاريخ يستطيع شخص واحد ـ فنان واحد ـ أن يكون رمزا لذوق شعبه ومشاعره . .

هذا ما فعلته أم كلثوم . فعلته فى القاهرة . . وفى الخرطوم ، فعلته فى المغرب ، فى الكويت ، فى تونس ، لبنان ، ليبيا ، فعلته . . حتى فى هونج كونج ، حتى فى كندا !

ان هونج كونج هى بلد الغرائب . ولكن الغريب بالنسبة لى كان ما يلى : سيدة مصرية متزوجة . انها متزوجة من مدير فندق هيلتون بهونج كونج . . انها مقيمة هناك منذ أربع سنوات . شقة أنيقة فى الدور الثالث من الفندق .

وقبل أن أغادر هونج كونج سألت السيدة المصرية مجاملا :

— ألا تريدين أى شىء من مصر ؟

ردت السيدة بلهفة : آه . . أرجوك !

— ماذا ؟

— اسطوانات . اسطوانات أم كلثوم . ان أحدث اسطوانة عندى هى « انت الحب » . أريد اسطوانات كل الأغانى التالية لها . لا تنس . . أرجوك لا تنس !

● ● ●

ومن هونج كونج فى الشرق الأقصى ـ إلى كندا فى أقصى الغرب ، تكررت لى نفس التجربة !

لقد ذهبت إلى كندا مرة فى مهمة صحفية ، ان كندا بلاد بعيدة . . بعيدة . . بلاد تفصلنا عنها صحراء وبحار ومحيطات و ١٧ ساعة بالطائرة ، بلاد نأتمنها على أربعين ألف مواطن عربى يعملون هنا . . ويعيشون هناك . .

اننى سوف أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى لقاءاتنا كل ليلة فى أحد المطاعم المملوكة للعرب بمدينة مونتريال ، مطعم صغير ، ولكنه كان كبيرا جدا بالنسبة لنا ، لأن صاحبه يمتلك عدة شرائط سجل عليها أحدث أغانى أم كلثوم ، (احدث هنا تساوى عشر سنوات مضت !) ـ

كنا نلتقى كل ليلة ـ مجموعة من المواطنين العرب . . وأنا . . ثم . . نبدأ فى سماع أغانى أم كلثوم . شيء واحد أجمعنا عليه : ان بلادنا كلها تعيش فى هذا الصوت . نيل مصر ، جبال لبنان تلال الأردن ، لهيب الجزائر ، سحر المغرب ، حضارة بغداد ، تاريخ القاهرة ، عمق المحيط ، صفاء السماء ، اتساع الصحراء . .

وأحيانا كان هذا كله يختفى عندما يتعطل جهاز التسجيل . . لحظتها يسكت هذا كله . يتحول إلى صدى . ذكرى . أمل . وإلى ان ينجح أحدنا فى اصلاح الجهاز . . فإن كل لحظة تزن فوقنا كجبل . . ثم . . يعود الصوت . تعود بلادى ، بلاده ، بلادها ، بلادنا . .

كيف حال بلادنا ؟ . .

بلادنا تستعد . . شبابنا يحارب . . أرضنا ترويها الدماء . .

وأسأل أم كلثوم : ماذا تقرئين الآن ؟ . .

وهى ترد : قصيدة شعر نزار قبانى . يقول أحد أبياتها . .

إلى فلسطين طريق واحد   يمر من فوهة بندقية

هنا تقول أم كلثوم : ان القضية قضية أرض فلسطين لم تكن أرضا خالية من السكان . فلسطين كانت شعبا يملك الأرض . والشعب يجب أن يعود . ليست المسألة احسانا يقدمه العالم إلى اللاجئين . ان فدائيينا كسبوا لنا فى سنة ما لم تكسبه لنا أصواتنا فى عشرين سنة . .

واسأل : أم كلثوم . . ماذا تتصورين اننا نحتاج إليه الآن ؟ . .

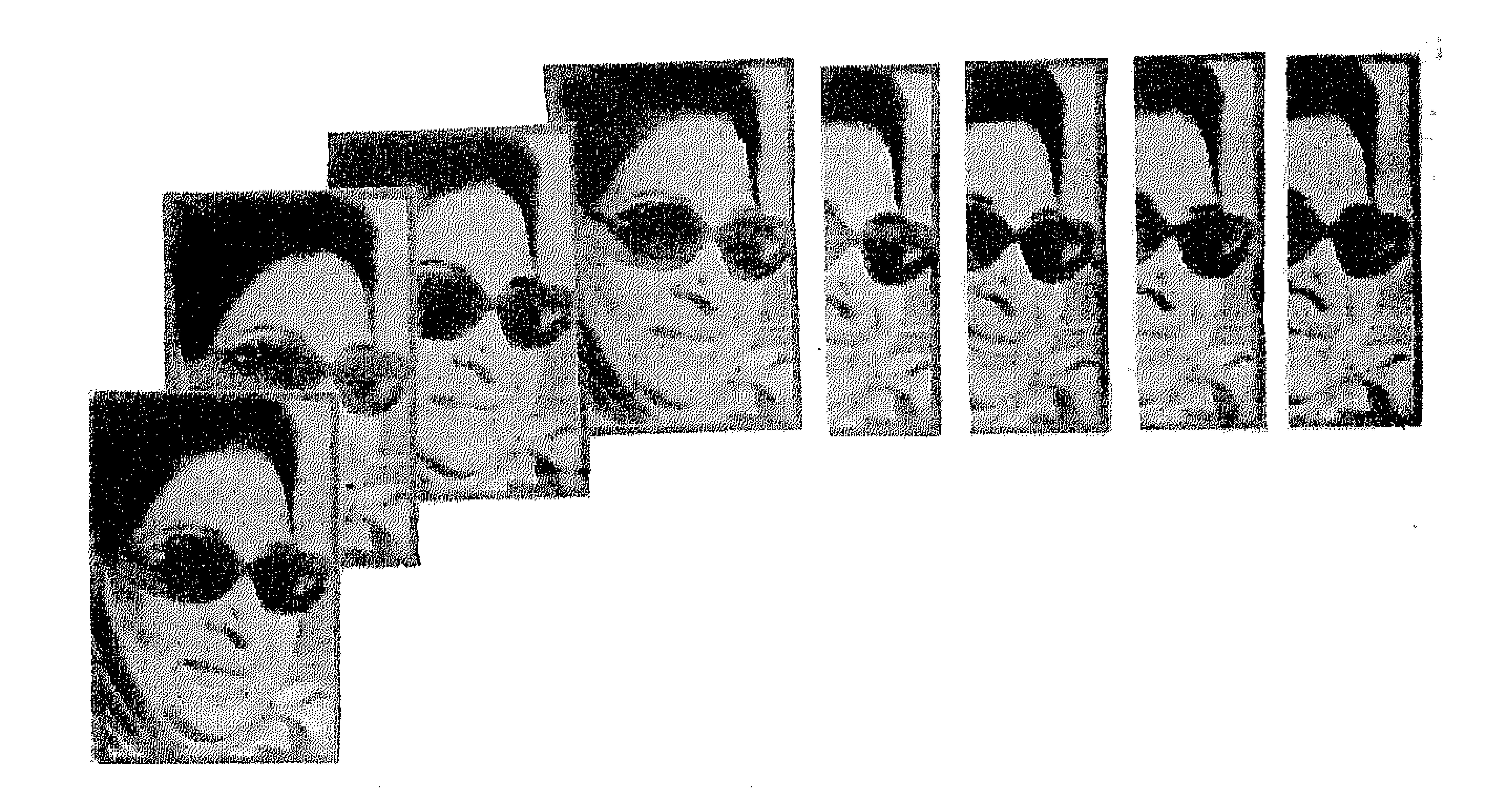
وأم كلثوم ترد : رصاص . . وعمل . .

هذا كل شيء .

هل نحتاج إلى شيء آخر ؟ . .

● ● ●





ماذا يبقى من أم كلثوم . .
أو محاولة لفهم الشخصية الفنية

« لا يهمنى من يضع للناس شرائعهم ما دمت أنا الذى أضع لهم أغانيهم » . .

كونفوشيوس

.. إلا المرأة !
عندها يصاب كل كتاب التاريخ المصرى بفقد الذاكرة ! . .

فأى شخص يتعرض لتاريخ المرأة فى مصر لن يجد نموذجا واحدا لامرأة يحييها المؤرخون ، أو حتى يؤرخ لها المؤرخون !! . .

فالمرأة عندما ظلت لفترة طويلة صورة ملحقة بأصل أكبر منها وأهم : الرجل . .

المرأة فى تاريخنا ظل . خيال . صدى . ان المؤرخين لا يتحدثون عنها إلا من خلال رجل . . أو عن طريق رجل . . أو بوساطة رجل !

و . . هذه أول قاعدة ساهمت أم كلثوم فى كسرها . .

ان ما يبقى - أو يجب أن يبقى - من أم كلثوم هو هذا : أن المرأة تستطيع هى أيضا ان تساهم بشكل رئيسى فى حياتنا العامة . . وفى قضايانا العامة . ان أم كلثوم - كامرأة - لم تنتظر الدعوة من أحد لكى تبدأ نشاطا وطنيا عاما بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، وقبلها نشاط مستمر . النقطة هنا هى أن المرأة يمكن ، تستطيع ، بل تقوم فعلا بتحويل السياسة إلى عمل بسيط يؤديه كل مواطن . المرأة هنا تستطيع أن تشارك ، تدعو ، تفكر ، تتقدم ، تبادر ، ثم تعطى المثل . لم تعد المرأة هنا تحتاج إلى أن تبرر نفسها مرتين : مرة كامرأة . . ومرة كمواطنة . لقد سقط الحاجز الذى كانت المرأة تجلس خلفه . . كامرأة . . وبسقوط هذا الحاجز بقيت الصفة الأساسية للمرأة : انها . . . أولا . . ثم امرأ بعد ذلك .

هذه نقطة . .

ولكن أم كلثوم فنانة مثلما هى امرأة . .

هنا أيضا نستطيع أن نكتشف ماذا يبقى لنا منها كفنانة . لقد أثبتت أم كلثوم من قبل أن المرأة لا تستطيع أن تكون مواطنا محايدا فى القضايا العامة . انها هى أيضا يجب أن تتصدر الصفوف .

وما يبقى من أم كلثوم كفنانة هو أن الفنان أيضا لا يمكن أن يكون محايدا . الفنان لا بد أن يكون « مع » و « ضد » . الفنان لا يستطيع أن يكون عديم اللون والطعم والرائحة . . لا بد للفنان أن يكون له طابع ، لون ، موقف . .

فعندما جاءت أم كلثوم إلى القاهرة كانت تستطيع بسهولة أن تكون مجرد مطربة أخرى تردد الأغانى الخليعة السائدة . مجرد مبتدئة تكرر ما نجح فيه غيرها . مجرد صدى . ولكنها اكتشفت انه لا بد للفنان أن يختار . لا بد لأن الفن هو أولا اختيار .

وحينما يختار الفنان فإنه يفعل ذلك دون أن يلوى ذراع الجمهور لا يستطيع . لا يمكن . .

عند هذه النقطة بالضبط سوف نجد أنفسنا وجها لوجه أمام الدور الحقيقى للفنان ـ لأى فنان ـ دور نسىء فهمه غالبا ، دور يفرض علينا أن نفهم الفنان أولا . . حتى يفهمنا الفنان ! . .

● ● ●

ان الفنان هو أولا متفرج . انه متفرج كأى شخص ، ولكنه ليس كأى شخص ! . .

الفنان متفرج من حيث انه يعيش فوق نفس الأرض التى نعيش عليها جميعا . يتنفس نفس الهواء . ينفعل بنفس الأحداث .

ولكن الفنان يأخذ تلك اللحظات التى هى بالنسبة لنا مجرد لحظة ، زائد لحظة ، زائد لحظة أخرى . . ثم ينقلها إلينا مرة أخرى كسلسلة جديدة مترابطة من الزمن ، لها معنى جديد . . وتفسير جديد . .

● ● ●

ان الشخص العادى يرى صورة الحياة مجزأة منظرا منظرا ـ يرى الجزء الذيهه ، ولكن الفنان يرى أو يحاول أن يرى ـ الصورة كلها . فالشخص العادى يرى الشجرة . . والفنان يرى الغابة . .

من هنا بالضبط يبدأ الفنان فى الانفصال عن الشخص العادى . .

فالشخص العادى يعيش حياته بالأقدمية . مجرد تسجيل أقدمية زمنية فى الحياة . ولكن الفنان ليس كذلك . انه ليس قطعة أسفنج تمتص الألوان وتعيدها إلينا دون تغيير . انه يعيدها إلينا ألوانا جديدة . . بمعان جديدة . . ومضمون جديد . . فن . .

والفنان ـ عندما يكتمل ـ فإنه يتعلم أن يفكر ويشعر ويرى بشكل جديد ، طريقة خاصة . أسلوب مختلف . وهذا هو الأمر الصعب دائما فى أى شىء . .

ان الروائى الفرنسى الشهير فلوبير كان يقول لكل واحد من تلاميذه اذهب وسر خطوتين . . ثم اكتب لى ما رأيته فى مائة سطر ! . .

هذا حقيقى . .

فالفنان لا بد أن يرى ما لا يراه غيره ، يلاحظ ما لا يلاحظه غيره . يتفرج كما لا يتفرج غيره . .

وكل منا هو فى الواقع فنان بدرجة أو بأخرى ، ان الغريزة التى تدفعنا إلى أن نطابق بين ألوان جواربنا وأربطة عنقنا ، وتدفعنا إلى أن نضع أزرارا على ملابسنا . . هى نفسها الغريزة البدائية التى تدفع الفنان فيما بعد إلى البحث عن الجمال فى كل شىء قبيح . كلنا إذن فنانون بشكل ما . . بالرغم من اننا لا نعرف ذلك غالبا . اكتشاف . تماما كالبطل فى احدى مسرحيات موليير . . عندما يشعر بسعادة بالغة لأنه اكتشف ـ فجأة ـ انه كان طوال حياته يتكلم : النثر ! ! . .

نحن إذن نحتاج إلى النظرة الفنية فى حياتنا ، نحتاج إلى وجود الفنان ، وإذا لم نجده اخترعناه . فكل جيل يتولى اختراع الفنانين العظماء الذى يقدم لهم تقديره واعجابه . .

●●●

ومن الأقوال المأثورة ان كل شعب يحصل على الحكومة التي يستحقها . .

ولكن الأقرب إلى الحقيقة ان كل جمهور يحصل على الفنانين الذين يستحقهم ، لأن كل جمهور يسعى دائما إلى ان يتعرف على حقيقته . والفن يقوم ـ في جزء منه ـ بهذه المهمة . الفن ـ كما قال الروائي الانجليزي د . هـ . لورنس : يخبرك بالحقيقة هي عصره أو ـ كما قال كارل ماركس ـ الفن هو دائما الحركة الخالدة لعصره أو ـ يقول الفنان الشهير بيكاسو ـ اننا جميعا نعرف أن الفن ليس هو الحقيقة . ان الفن هو الأكذوبة التي تجعلنا ندرك الحقيقة .

ان الصفة الأساسية، للفن إذن هي انه يكتشف ويدرك لحسابنا انه يعطينا الوجه الآخر ـ الوجه الخفي ـ لحياتنا .

والفنان حينما يقوم بهذه المهمة فإنه يقوم بها لحسابنا جميعا . لحساب جمهوره . فلا تصدق انه يوجد فنان لا يهتم بالجمهور . كذب . الفنان لا يمكن أن يستغني لحظة عن الناس وعن الجمهور . . الآن ، أو بعد مائة سنة . بل ان الفنان الروائي تولستوى ـ في تعريفه للفن ـ يقول انه « . . نشاط انساني يحاول فيه واحد من الناس أن ينقل احساسات معينة عاشها هو . . لكي يتأثر بها الآخرون ويعيشون هم أيضا » . .

ان جوهر هذا الرأى لتولستوى يتشابه مع نظرية أخرى في الشعر وثالثة في القصة ، ورابعة في الغناء . نظرية تصر على أن الفنان هو « انسان يتحدث إلى الناس » . .

لهذا السبب فإن الفنان يجد نفسه دائما في وضع واحد مع السياسى والقديس . ان الثلاثة هم الذين يحكمون العالم ـ الآن وفي أى وقت . الثلاثة عبيد لـ ـ وسادة على ـ المجتمع الذى يعيشون فيه . الثلاثة يحتاجون دائما إلى جمهور ، ولهم دائما جمهور . ولكن من الصعب أن نقول أيهم يملك السلطة الأكبر بالنسبة لجمهوره .

ان السياسى يملك السلطة ، والقديس يهدد بالجحيم ، والفنان يغرى بالجمال . .

وبالنسبة للسياسى فإن العالم ينقسم إلى قسمين : أصدقاء . . وأعداء . الذين معه . . والذين ضده . .

وبالنسبة لرجل الدين ينقسم العالم إلى قسمين آخرين : مؤمنين . . وكفار . الذين يؤمنون . . والذين يكفرون .

أما الفنان ـ فما زال العالم ينقسم عنده أيضا إلى قسمين : الذين يحبون . . والذين لا يحبون . الذين يتذوقون الجمال . . والذين لا يتذوقونه . .

انه إذن تقسيم مختلف . اهتمامات مختلفة . جمهور مختلف .

وأحيانا يكون الجمهور واحدا بالنسبة للثلاثة ، ولكن معنى هذا الجمهور يختلف .

احيانا تكون الأيدى التى تصفق للجميع هى نفسها .

ولكنها عندما تصفق للسياسى فهى تقول : موافقون .

وعندما تصفق للقديس فهى تقول : مؤمنون .

وعندما تصفق للفنان فهى تصيح : اعطنا المزيد . . أعد . .

ان الجمهور يقول ذلك للفنان بغير سلطة يخشاها أو جنة تغريه . . لختيار . . لأن الفنان هو الوحيد الذى يعيش بعقله . يعيش على ذكائه ، وذكائه فقط . انه يلعب على المكشوف . ان أوراقه كلها يراها الجمهور . .

لهذا السبب نفسه فإن الفنان يحتفظ بأذنه دائما قريبة من أيدى الجمهور . وكلما صفق له الجمهور أكثر . . احتاج هذا لتصفيق أكثر . . المسألة كمياه المحيط . كلما شربت منها أكثر . . عطشت أكثر . . ان الفنان هنا كالبطل فى إحدى روايات بلزاك ، حينما يطل على باريس ويصيح : لم يزل أمامى أن امتلك هذه ! .

● ● ●

ولكن الفنان لا يحصل على اعجاب الجمهور بسهولة . وإذا حصل عليه أصبح صعبا أن يحافظ عليه .

المسألة هنا كطرق مقص . كلما حصل الفنان على اعجاب من الجمهور . . شعر بخوف أكبر من فقدان هذا الجمهور . خوف من الا يتلقى هذا الاعجاب مرة أخرى .

ان الذين يعرفون أم كلثوم عن قرب ، يعلمون انها تعتبر أن كل أغنية جديدة تقدمها للجمهور هى أغنيتها الأولى . هى لقاؤها الأول مع الجمهور . انها تحس بخوف ، باضطراب ، بقلق ، بمسئولية ، انها تحس ان كل عمل جديد تقدمه هو استفتاء جديد لشعبيتها ، هذه المسئولية نحو الجمهور ، هذا القلق ، يشغل كل فنان أصيل بأكثر مما نتصور ، وكلما كبر الفنان زاد قلقه . . زادت مسئوليته . . ان أى شخص . . كلما ارتفع فوق السلم . . ازدادت خشيته من السقوط . لأنه كلما كان مرتفعا . . كان السقوط مدويا . .

وسقوط الفنان يمكن أن يتم فى أى لحظة . لا يكفى أن تكون فنانا أمس ، ولا منذ خمس دقائق . يجب أن تكون فنانا الآن ، وفى كل لحظة . أن بيرجنت بطل مسرحية هنريك أبسن يصيح قائلا : أين ثلوج شتاء مضى ؟ !

والجمهور يفعل نفس الشىء : لقد ذابت بالنسبة له ثلوج شتاء مضى . ذابت أمجاد يوم مضى . ماذا من جديد . . هذا ما يهم الآن . .

ان هذا الخوف من ـ والحاجة إلى ـ الجمهور ـ هو أبرز ما يميز الفنان عن غيره فى هذا العالم . ان الجمهور بالنسبة للفنان هو المكافأة . . وهو العقاب . هو البداية . . والنهاية . السعادة . . والألم . القمة . . والقاع . .

هذا معناه أن الجمهور يملك دائما حق الفيتو بالنسبة لأعمال الفنان . حقا يحمى أهل الفن دائما من أهل الهوى . . ويميزهم عن أهل الهوى . .

فالفن يرفض التكرار . . حتى ولو طلبه أهل الهوى .

والفن لا يقبل الوساطة . . حتى ولو حاولها أهل النفوذ . .
والفن لا يأخذ رشوة . . حتى ولو دفعها أهل الغنى . .
كل الفنون هكذا : أدب . . موسيقى . . رسم . . شعر . . صحافة . . وغناء . .
انها علاقة مباشرة تجعل الفنان دائما أصدق ممثل للجمهور . فالفنان الصادق دائما هو الذى يتقمص الصفات البارزة لشعبه . من الذى يفوق فى أمريكيته مثلا سبنسر تراسى أو هنرى فوندا أو هنرى ميللر . من الذى يفوق فى ايطاليته البرتومورافيا أو أنا مانيانى ؟ من الذى يفوق فى فرنسيته جان بول سارتر أو بريجيت باردو ؟ من الذى يفوق فى مصريته طه حسين أو العقاد أو أم كلثوم ؟
كلهم يحملون فى أعمالهم بصمات شعوبهم واضحة . صفات مجتمعهم كاملة . اتفق أو اختلف مع هذه الصفات كما تشاء . . ولكنهم فى النهاية رمز وتلخيص لها . .

● ● ●

والفنان ـ بجانب مهمته كمتفرج على الحياة ـ هو أيضا مفسر لهذه الحياة . انه مؤرخ للماضى . . ومكتشف للمستقبل فى وقت واحد . .
صعوبة جديدة تضاف إلى الصعوبات السابقة فى عمل الفنان .
فالفنان عندما يكون كاتبا . . فإنه يصبح كالطبيب : لا تهمه حالات اكتمال الصحة ، ولكن تثيره حالات تفشى المرض .
وعندما يكون أديبا . . يصبح كالفلكى : يبدأ بما يراه الجميع . . لكى يصل إلى ما لا يراه الجميع .
وعندما يكون موسيقيا أو ممثلا أو مغنيا . . يصبح كالشمعة : لا بد أن تحترق . . لكى تنير للآخرين . لا بد أن يتألم الفنان . . لكى يسعد الآخرين . .
فالشمعة فى يد الفنان تحترق من طرفيها ، لا بد للفنان أن يتعذب ، يقاسى ، يتألم ، أحيانا يستشهد ، لكى يقدم للآخرين شعاعا من النور

يهديهم إلى الطريق . .

وكثيرا ما لا يرى الناس أثرا لهذا العذاب فى عمل الفنان ، تماما مثلما نلاحظ فى حياتنا العادية أن كثيرا من الأشياء التى نأكلها قد طبخت على موقد بوتاجاز . . ولكننا لا نعثر فى الطعام على مذاق البوتاجاز : .

لهذا السبب كان الموسيقار الألمانى الشهير بيتهوفن يقول دائما : انى أصبر وأفكر وأتألم . . فكل ألم يجلب معه بعض الخير !

ان هذا الأمل ـ الأمل فى بعض الخير بعد كل العذاب ـ هو العزاء الأخير لأى فنان عن ألمه ، مثلما نجد أن نجاح انطلاق الصاروخ فى دقيقة هو العزاء الأخير لسنوات من الجهد الذى بذله المهندسون والعلماء فى تركيب هذا الصاروخ .

ان الخوف من الجمهور يسبب اقصى الألم ، ولكن مكافاة الجمهور تسبب أقصى سعادة . شعور عبر عنه حكيم الصين القديمة كونفوشيوس بقوله : « لا يهمنى من يضع للناس شرائعهم ما دمت أنا الذى أصنع لهم أغانيهم » .

لأن الفن هو فى النهاية تعبير الانسان عن سعادته .

● ● ●

و . . أم كلثوم هى أولا امرأة ، وثانيا فنانة ، وثالثا فنانة تسعد الناس .

وبالمنطق . . .

ليس من حقنا أن نستهلك السعادة دون أن ننتجها . كلمات نظرية . لأننا نرى غير ذلك فى حياتنا . نستهلك الثروة دون أن ننتجها . نستهلك الجمال دون أن نخلقه . و . نستمع إلى أم كلثوم ، دون أن ننتج أم كلثوم أخرى . ولسوف يظل الأمر هكذا إلى ان نفهم أولا طبيعة الفنان كشخص متميز . نفهم ثانيا ماذا يتبقى لنا من الفنان من أم كلثوم فى حالتنا هذه .

ان أم كلثوم فنانة تغنى . قمة فى فنها . مستمرة فى قمتها . ان استمرارها هذا نجاح فى حد ذاته . فمع صدام الأجيال المستمر الذى

تشهده الانسانية . . لا يوجد جيل يتقبل احكام وأذواق الجيل السابق عليه بغير مراجعة أحيانا وبالرفض غالبا . ان هذا لم يحدث مع أم كلثوم . استثناء خاص .

ان هذا الاستثناء لم يكن مجاملة شخصية لأم كلثوم . فالفن لا يقبل المجاملات . وانما هو نتيجة لصفات استثنائية تميزت بها أم كلثوم . صفات حاول هذا الكتاب تسجيل عناوينها إلا صفة أخيرة . . هى حياة أم كلثوم نفسها . .

فنحن ـ فى الأدب مثلا ـ نرى أن هناك نوعين من الفنانين . نحن نرى فنانين تطغى أعمالهم الفنية على حياتهم . شيكسبير مثلا . نحن لا نعرف من هو شيكسبير . . أو من كان هومر ، لقد اختفى الفنان هنا داخل عمله ، وتراجعت حياته وشخصيته إلى الخلف تماما . .

وفى مقابل ذلك نجد فنانين طغت حياتهم على أعمالهم الفنية . جان جاك روسو مثلا . ان اعترافاته التى سجل فيها حياته أصبحت أهم عمل فنى له . لقد أصبحت حياته نفسها عملا فنيا تراجعت إلى جانبه كل الأعمال الأخرى . .

وبالنسبة لأم كلثوم فإننى أرى انها تنتمى إلى النوع الأولى فى المدى القصير ، وتنتمى إلى النوع الثانى فى المدى الطويل . ان السنوات القادمة سوف تؤكد ذلك .

تؤكد أن حياة أم كلثوم هى نفسها العمل الفنى الأكبر الذى تركته لنا . .

و . . .

كم الساعة الآن ـ لو سمحت ؟ !

● ● ●





الفصل الأخير

الدنيا ..
التى كانت أم كلثوم

.. ودخلت أم كلثوم إلى المستشفى لكى تغنى أصعب ألحانها . تغنى أغنيتها الأخيرة قبل الرحيل !

خلق الانسان ضعيفا .

●

لم أكن أنظر إلى أم كلثوم أبدا كإنسانة ضعيفة . رأيتها دائما كإنسانة عاشت خمسين سنة من حياتها على الصفحة الأولى . فمن يومها الأول فى القاهرة وهى تعلم جيدا مهمتها فى الحياة ..كانت مهمتها هى أن تذهب مع الحياة إلى أعلى تماما . أو إلى أسفل جدا .

نعم ، فى حياة أم كلثوم لحظات كثيرة خفية تعرضت فيها من الحياة إلى خطر الهزيمة النهائية .

مع ذلك كانت المهمة أمامها واضحة : مع الحياة . . إلى أعلى ، أو إلى أسفل . لا شىء فى الوسط . أم كلثوم لم تكن وسطا فى اى شىء . فى البداية فقيرة جدا ، ثم بعدها ، فى العشرينات : مطربة . فى الثلاثينات : موهبة . فى الأربعينات : نجمة . فى الخمسينات : كوكب الشرق . فى الستينات : أسطورة . فى السبعينات : عنيدة . . وجريحة أيضا .

آه . . نسيت أن اقول شيئا بعد كل كلمة سابقة . هناك دائما كلمة « جدا » . ان أم كلثوم فى حياتها كانت أى شىء وكل شىء ، ولكن : جدا ، جدا ،جدا .

فى حياة أم كلثوم لم يكن هناك شىء مؤجل سوى الفقر . اننى لا أتذكر من الذى قال : انك إذا ذقت الفقر مرة . . فان لن تكون غنيا مطلقا .

أم كلثوم لم تكن تحس بأنها غنية مطلقا .

معها نقود الأغنياء ، ولكن ليس فيها غطرستهم . مجرد تناقض واحد من مائة تناقض فى حياتها . ان فى شخصيتها مزيجا من النار والهواء . فى صوتها المطر والشمس . فى عمرها الطول والقصر . فى حياتها البساطة والانغلاق . فى منزلها الصمت والضجة . . العزلة والزحام . . الفقر والغنى . . معا .

●

منزل أم كلثوم فى هذه الأيام تحول إلى مجرد « سويتش » . انه سؤال واحد يحمله التليفون : كيف حال الست ؟

ان الست بخير . هكذا يرددون الكليشيه منذ أيام . بالطبع ليست هذه الحقيقة مطلقا . ولكن ، إذا سألت عن الحقيقة . . فللقصة بداية أخرى . هل تتذكر ذلك اليوم من شهر مايو سنة ١٩٧٢ ؟ نعم ، بالضبط . من هناك تبدأ رحلة أم كلثوم مع العذاب .

●

مدينة لندن .

السياح والزحام والشراء والضجة وقليل من الشمس و ـ حسنا ، انها لندن فى الصيف . هيلتون لندن . الدكتور حسن الحفناوى عاد لتوه من المستشفى مع زوجته أم كلثوم . عاد الاثنان فرحين ، متفائلين . الآن تمت كل الاجراءات ، ووصلت التحليلات ، وجاءت كل الأدوية ، وبدأت الطمأنينة . الآن يدخل الزوجان إلى الفندق . . إلى الأسانسير . . إلى . .

لقد سقطت أم كلثوم مغشيا عليها .

صرخ الدكتور حسن : الحقونى من فضلكم . . الحقونى بملح ، ملح ، ملح . .

لقد دفع الزوج الطبيب بالملح إلى فمها بيديه . بعد قليل بدأت أم كلثوم تسترد وعيها ، قليلا قليلا قليلا ، ثم : عادت أم كلثوم إلى الحياة .

عادت ، ولكن . . بإيقاع بدأ يصبح بطيئا ، بقدم إلى الأمام وقدم إلى الخلف ، بالطلقة الأولى فى صراعها مع الحياة والمرض . لقد بدأ شد الحبل .

كان يوم ثلاثاء . هل تتذكره ؟ نعم أتذكره ـ ١٧ مايو ١٩٧٢ .
من يومها بدأ العد التنازلى . ●

كان العد التنازلى فى علاقتى بأم كلثوم قد بدأ منذ اللقاء الثانى . لقد جئت ، بناء على طلبها وإصرارها ، لكى أقرأ عليها « بروفة » مقالى عنها فى الصفحة الأخيرة من جريدة « أخبار اليوم » غدا .

كان يوم جمعة .

ولم أكن مستريحا بالمرة من البداية ، فلم أتعود مطلقا أن أقرأ مقالا على الشخص موضوع المقال من قبل . لكنها أم كلثوم ، ورؤساء التحرير جميعا حريصون على إرضاء أم كلثوم .

ومن السطر الأول قاطعتنى أم كلثوم بقولها : ما هذه البداية ؟ هذه جملة ناقصة . ألا تتكون الجملة من مبتدأ وخبر ؟ هذه الجملة خبر . . بلا مبتدأ !

وأغلقت الأوراق أمامى متطلعا إليها ، قائلا بشعور من المفاجأة : هذا صحيح . . ولكن قبل أن أواصل القراءة علينا أن نتفق أولا : من منا يغنى أفضل من الآخر ؟

الآن جاء الدور على أم كلثوم لكى تشعر بالمفاجأة . لقد تمتمت : بالطبع . . أنا !

قلت فى التو : إذن ضعى فى اعتبارك أننى أفهم فى الكتابة أكثر . .

وللحظات معدودة . . ازدحم الهواء بيننا بما هو أخطر من ماس كهربائى . لكن أم كلثوم قطعت الصمت بقولها : معقول . . طيب ، فلنكمل القراءة . لقد أكملنا القراءة .

وحينما غادرت منزلها عائدا إلى مكتبى فى « أخبار اليوم » كنت أقدر أننا لن نلتقى بعدها أبدا .

لكن التليفون فى اليوم التالى حمل إلى صوتها . لقد تكلمت بتركيز واختصار . وبمجرد أن انتهت المكالمة . . أحسست أننى أريد أن أغنى . ومن تلك المكالمة بدأ مشوارى الطويل معها .

التليفون .

ـــ ياصديقى أم كلثوم تريدك غدا فى ستوديو ٤٧ بمبنى التليفزيون .

قلت للموسيقار بليغ حمدى : خير ؟
ضحك صديقى بليغ فى التليفون قائلا : تسمع تسجيلها للأغنية الجديدة من ألحاني . . أغنية « حكم علينا الهوا » . .
— ولكن أم كلثوم لا تحب أن يشاهدها أحد وهى تسجل . .
قال بليغ : ماعلى الرسول إلا البلاغ . .
قلت : معك الحق . أنت أبلغتنى . . وأنا لن أذهب ! .

●

ستوديو ٤٧ - بعد أسبوع .
ابتسامتها تملأ الاستوديو . الموسيقيون يتزاحمون خلفها . المهندس زكريا يراقب . بليغ قلق . أنا مضطر لاقتسام القلق معه ، فلا يوجد غيرنا .
أم كلثوم تخرج .
انها جاءت لتستريح . أهلا ، أهلا ، أهلا ، و . .
— لازم ما تجيش إلا إذا كلمتك أنا ؟
قلت لها : انك صاحبة الحق فى ذلك .
شىء ما كان يقلقنى . لا يمكن أن تستدعينى أم كلثوم بهدف سماع بروفة . لا هى عادتها ولا أنا أريد . إذن . . ماذا ؟
قالت أم كلثوم بطريقة عابرة : مش تقول مبروك لمدحت ؟
قلت : نحن لسنا أصدقاء تماما ، ولكن باعتباره ابن ابن شقيقتك أقول له مبروك . . إنما ، على إيه ؟
قالت أم كلثوم بشعور من الفخر والاعتزاز : خطبت له بنت ناس كويسين أوى . .
— عظيم .
صمت .
ثم قالت أم كلثوم : انت ها تتجوز إمتى ؟
قلت : مش عارف . .
قالت : على فكرة أنا فيه حاجة محيرانى فيكم انتم ولاد اليومين دول . . انتم ما بتتجوزوش ليه ؟ !
— مش عارف . . أنا لم أفكر .
— أمال بتفكر فى أيه ؟ !

بعدها حاولت أن أثرثر فى أشياء كثيرة بلا معنى . انها « الأم » . . أم كلثوم . الرقيقة . . أم كلثوم . انها تتكلم عن بنت الناس وبنت الأصول ومدحت واهتمامها بمدحت و . . يعود التسجيل . .

●

بليــغ حمدى يــروح ويجىء ويجلس ، ويــروح ويجىء ويجلس . و . . .

— ما تقعد يا بليغ بلاش نظام القلق ده . .

سألنى بليغ : انت مش حاسس بحاجة ؟ ام كلثوم تعبانة جدا . أول مرة صوتها يتقطع . .

فى الواقع ان التسجيل نفسه تقطع .

انها خرجت لاهثة وضعيفة ومتهالكة و : ألقت بنفسها فوق الكرسى .

— خير . . مالك ؟

— لا مفيش . مجرد دوخة . فين اليانسون ؟

جاء اليانسون . انها تنفست بعمق ، وارتشفت بحرارة ، وقررت بحسم : فلينصرف الموسيقيون اليوم .

اننا جلسنا فى ارتباك : بليغ وأنا . ارتباك وقلق .

بعد قليل بدأت هى تتحدث . الوجنتان تهتزان . الحاجبان يعلوان ويهبطان . الجبهة تبدو متوترة قليلا . ومع ذلك فالشفتان تشعان ابتسامة مضيئة . ان الكلمات حنونه والابتسامة مستمرة ، ولكن . . هناك شرخا فى هذه الابتسامة .

خير ..

قالت أم كلثوم : هيه يا بليغ . . نكمل التسجيل بكره . . إذا طلع كويس ، عندى لك مفاجأة . .

سألها بليغ ضاحكا : تعطينى الساعة ؟

تطلعت أم كلثوم إلى ساعتها الفضية الأنيقة : بس دى ساعة حريمى يا ولد انت . . وبعدين أنا اقدرش أقول لك لأ . . انت عارف . . انما ممكن واحدة تضحك عليك وتاخدها . .

بليغ يضحك ويندهش ويتساءل : معقول يا ثومة ؟

قالت ثومة : والله يا خويا كل حاجة معقولة معاكم . . أنا عارفة إيه اللى جرى لكم ؟ ! — جرى إيه يا ثومة ؟

وجهت إليها السؤال ونحن فى السيارة متجهين إلى منزلها . سؤال خرج من فمى ، مشحونا بالتردد والتلعثم بقدر ما فيه من القلق .

قالت أم كلثوم ضاحكة : عايز تقول إيه ؟

فعلا أريد أن أقول . كلنا نريد أن نقول . ولكن . . كيف ؟ لقد ترددت قبل أن أفرغ بسرعة ما أريد أن أقوله وأستريح .

ردت أم كلثوم : أعتزل الغناء ؟ سهل جدا . سهل ومريح . اننى حتى أستطيع أن أجد عذرا لذلك . مع هذا فاننى أعرف فى داخلى أننى لو قررت الاعتزال . . فهذا يعنى النهاية .

وصمتت أم كلثوم قليلا . . قبل أن تضيف وكأنها فى حوار داخلى : لا أستطيع . . لا أستطيع . . اننى أحسب عمرى بعدد مرات وقوفى على المسرح .

بعدها حشر الصمت نفسه بيننا . السيارات والشوارع والاشارات وصدق فظيع فى كلماتها . ان كلماتها الأخيرة وقتها كانت : هيه ؟ ها تيجى التسجيل بكره ؟

اننى لم أكن أعلم بعد أنه تسجيلها الغنائى الأخير . لهذا قلت لها : أكيد . . لكن ، هل أنت بخير ؟

نعم . كانت بخير .

أو ـ لم تكن ؟

●

الأربعاء . المغرب . الخامسة الا الربع .

انهم أطباء الكونسلتو . الكشف والتحليل فى الطابق الثانى . منزل أم كلثوم . الزمالك . المناقشة فى الدور الأول .

التحية هى : الحمد لله .

أحد الأطباء يقول : ولكن التقارير تؤكد . . .

الدكتور زكريا الباز ، بشعره المتزاحم بياضا وسوادا ، يعلق : نعم ، ولكن . . هل رأيت حالتها ؟ انها لم تكن فى أى وقت مرتفعة المعنويات بقدر ما هى الآن . .

— طيب والعمل ؟

— لازم تفوضونى . . وبالذات الدكتور حسن . . لازم توافقونى على أنى أقول لها . .

●

الأربعاء . غرفة أم كلثوم . انها على الكرسى . سعدية ـ بنت أختها ـ على السرير . الدكتور زكريا يتكلم . الدكتور حسن يراقب . أم كلثوم تستمع . انها تبتسم وتضحك وتبتسم . أخيرا تكلمت .

— طيب . . وبيقعدوا أد ايه فى جناح الكلى ده ؟

— من يوم حرب أكتوبر . . المريض لا يحتاج إلى أى مجهود أو وقت طويل . .

— على فكرة يا زكريا ، انتم كنتم أبطال فى حرب أكتوبر . كان مستشفى المعادى فخرا لنا جميعا . . أنا سمعت عن معجزات أنتم عملتوها .

— يا فندم حضرتك مساهمة فى كل جهاز احنا بنشتغل بيه . . كنا فى حرب ١٩٦٧ عندنا جهاز واحد للكلية الصناعية . دلوقت عندنا ستة .

— هيه . . يعنى انت عاوزنى أجى عندكم ؟ أنا موافقة . .

قال الدكتور زكريا كاتما الخبر المؤلم : دى مجرد زيارة يا فندم ، وكشف روتينى . .

ردت أم كلثوم ضاحكة : انت بتزن كتير ليه ؟ قلت لك موافقة يا سيدى ، عايزنى امتى ؟

تشجع الدكتور زكريا واستجمع كل دبلوماسيته احنا مش مستعجلين .. يعنى كده على يوم السبت ، نكون بس عملنا شوية استعدادات ..

قاطعته بقلق : استعدادات ؟

— طبعا يافندم .. مش لازم ندهن الجناح كله بوية جديدة ؟ أنا اخترت لك اللون البمبى .

— والله أنا كنت عايزة أقول لك ..

ثم : سكتت أم كلثوم . لقد دخل بعض الأقرباء إلى الحجرة . الكل يطمئن . الكل ينشرح . سؤال واحد يوجهه الجميع إلى الطبيب .

إن الطبيب يطمئنهم : الحمد لله .. الحمد لله .. حتى قومى كده ياست وافردى أيديكى واتمشى ..

قامت أم كلثوم وتمشت .. إنها تفرد يديها إلى الامام .. عظيم .. اليدان ثابتتان .. إنها تتمشى أمام الجميع . مازالت اليدان ثابتتين .

وقبل أن تبدأ اليدان في الارتعاش ، أمسك بهما الدكتور حسن هابطا بهما إلى جنبيها .. ضاحكا ومؤكدا في ثقة وتفاؤل : هايل ياثومة .. الحمد لله ، الحمد لله .

ثم : جلس الجميع .

●

مايزال اليوم هو الأربعاء .

الثامنة . التليفون .

قالت أم كلثوم : مين ياسعدية ؟

ردت ابنة أختها ، الملازمة لها دائما : ده الأمير عبد الله الفيصل ياست .. طالبك من جدة .

— أيوه .. أيوه .. هاتي السماعة .

بعدها قالت أم كلثوم : الحمد لله .. الحمد لله .. أنت مش سامع .. قل لي .. ازي جوهرة (زوجته السابقة) ؟

— في لندن .. كويسة .

— وازي سلوى (زوجته الحالية) ؟

— كويسة .. كانت قلقانة كتير عليكي .. أنت إزي صحتك ياست الكل ؟

— قل لها الحمد لله ، هو بس شوية ضعف بسيط .. ودلوقت حاتعشى . أول مرة أحس إني جعانة .

— أبعت لك طيارة فيها خروف .

— (ضاحكة) لا .. أبعت لي الأميرة سلطانة (طفلته الصغيرة) .. هي لسه عفريته ؟

— طول النهار شقاوة ولعب .

— (ضاحكة) ياخويا طالعة لأبوها .. أنت مابتشتغلش ليه اليومين دول ؟

— اشتغلت .. عملت ديوان جديد حاهديه لك ..

— استنى على بس شوية .. أنا عايزة الأول أعمل لك الحتة اللي كانت علجباني ولازم أعملها .

— آه ، اللي اسمها ...

— اسمها « فرحة حب » .. أنت ناسي والا إيه ؟ .. بقى لها عندي

سنة .. أنا حاكلم رياض بكره يبتدى يشتغل فيها .

— رياض السنباطى ؟ عظيم .. مابنريدك تفكرى في الغنا هالحين .. دلوقت المهم صحتك ..

— صحتى ياخويا حديد ..

— ثم : انتهت المكالمة .

●

إنه طعام شهى .. طعام ومساء وجو شهى .. النيل من النافذة .. الصحف على السرير .. أطباق الطعام فارغة على المائدة . مدحت ودسوقى ومحمد والدكتور زكريا حولها .

قالت أم كلثوم : المرة الجاية يا سعدية عايزة أكل مسقعة .

علق أحدهم : والله زمان .. المسقعة .

ردت أم كلثوم : زمان ليه ؟ ما احنا فيها .. الخير كتير والحمد لله .

— بس الأسعار .. الأسعار .

قالت أم كلثوم : آه صحيح ، لكن طول البلد ما هى .

قال محمد : زمان كانت العشرة صاغ تكفى الواحد يعيش منها وياكل فاكهته وتكفى كمان يشرب ..

تساءلت أم كلثوم : يشرب إيه يا محمد ويسخم إيه ؟ أنت مابتشربش حاجة .

— مش انا .. كان فيه ناس معانا همها الشرب .. يعنى مثلا كان فيه واحد صاحبى غاوى يشرب سبرتو أحمر ..

قاطعته أم كلثوم : لا ، وأنت الصادق .. دول كانوا بيشربوا طافية !

— وحشتنا قفشاتك ياست .. أنتى كمان فاكرة الحاجات دى ؟

— امال .. وفاكرة كمان أن البيضة كانت بمليم .. هى دلوقت بكام ؟

— بقرشين ، وساعات بثلاثة كمان ..

— يعنى العشرة صاغ بتاعتك كانت بتجيب كم بيضة ؟

— مائة ..

— ياه .. ! يعنى العشرة صاغ زمان كانت تساوى أربعة جنيه دلوقت ؟ لا .. كتير صحيح

سعدية تتدخل في الحديث .

قالت سعدية ضاحكة ومتفائلة : أظن كفاية كده ياثومة .. مش كده ياحبيبتى ؟

ثم : صفقت بيديها مستبشرة ومتفائلة وآمرة . إنها ليلة الصحة والأمل والدعاء والحمد والتفاؤل .

●

١٠ : ٤٥

دخل الكتور حسن . إنه قادم من المستشفى . خير . خير . خير .

— ازيك ياثومة .

— الحمد لله . . حاسة إني حديد زى ما أنت شايف .

— ربنا يخليكى لينا ياثومة .. حاتنامى ؟

— آه ، حانام على طول . حاسة إنى عايزة أنام على طول .

— طيب استريحى يا حبيبتى . أنا جنبك .

ثم انصرف الدكتور حسن إلى حجرته المجاورة .. الحجرتان يفصل بينهما تواليت وباب . لقد أغلق التواليت وفتح الباب . سعدية رفعت فيشة التليفون وأطفأت النور . تصبحى على خير . يا رب .

●

غرفة أم كلثوم .

الثالثة فجرا .

انشق الصمت فجأة عن صرخة فزع . سعدية فى حالة فزع : إيه ياثومة ؟ إيه يا حبيبتى ؟ مالك ياروحى ؟ أنت صحيتى ؟

قالت أم كلثوم : دماغى .. دماغى .

تساءلت سعدية فى فزع .. مالك يا حبيبتى ؟ سلامتك يا نور عينى ..

قالت أم كلثوم فى صوت مكتوم وألم بالغ : صداع .. عندى صداع جامد ياسعدية .

أحاطت سعدية رأس أم كلثوم ووجهها بيديها . فجأة أحست بيديها مبلولتين : خير ياثومة .. أنتى عرقانة ياحبيبتى ؟ الدنيا حر ؟ أنتى .

ثم : إنه ليس عرقا . إنها دموع أم كلثوم . أول دموع من أم كلثوم .

قالت أم كلثوم : الحبوب .. دماغى .. صداع .. دماغى .

ارتبكت سعدية وأخذت تبحث عن حبوب الصداع . يداها عصبيتان . قلبها يرتجف . إنها فى حالة ارتباك تام . يارب . لقد كانت أمامها حبات الأسبرين حالا .. ولكنها لا تراها .

نعم .. الأسبرين مايزال أمامها ولكنها لا تراه .. لا تراه .. لا تراه .

ثم : رأت الأسبرين .

قرص وقرصان وكوب مياه .. ثم أعادت أم كلثوم رأسها إلى الوسادة . أعادته ولم تتحرك .

●

التليفون . الحرارة . النجدة . الأطباء . الدكتور حسن يوقظ الجميع . إنه الدكتور زكريا الباز . حالا . حالا . من الدقى إلى الزمالك فى خمس دقائق .. حالة غيبوبة . هبوط . صدمة . الضغط . النبض . التنفس . دكتور رشاد برسوم . السيارة . محمد يبحث عن سيارته . إنها فى آخر الجراج . لا ، لا ، لن ينتظر السيارة . أنه يجرى فى الشارع ، بالروب والبيجاما والشبشب . يجرى . خير . خير . دكتور يحيى طاهر . أدوية . تحاليل . أدوية . الخامسة صباحا . المستشار وجدان طاهر . نريد حقن كورامين . سعدية تستغيث بزوجها المستشار وجدان : اسمع ، روح عندنا فى البيت .. أيوه ، فى الدولاب ، تانى رف على اليمين . مضبوط ، ثلاث حقن كوارمين . بسرعة ياوجدان .

السيارات . ادوية . تحاليل . أدوية . وصل الكورامين . ادوية . تحاليل . أدوية . الاغماء مستمر . التوتر يتزايد . الخوف يعود .. يارب . نريد حقن كالسيوم . مدحت يجرى إلى السيارة . إنها السادسة صباحا . لا ، لا ، مش كفاية . الدكتور يحرر نسخة أخرى من الروشتة . ممدوح يجرى . سيارة أخرى . الشارع . السرعة . نعم ، نعم ، هذه الصيدلية مفتوحة . هنا ، بجوار عمارة ليبون .

أدوية . تحاليل . ادوية . صيدلية الجمهورية . صيدلية الزمالك . أدوية . الضغط . النبض . التنفس . لابد من قياس التنفس . التليفون . سيارة قلب حالا . أوكسيجين .. إنها الثامنة والنصف . الأغماء . شخص آخر من الأسرة أصيب بأغماء . الأطباء أصبحوا مرضى . والمرضى فى حالة إغماء . هدوء . هدوء . لاداعى للعصبية . لاداعى للعصبية من فضلكم . قالها الدكتور .. بعصبية .

الاسعاف . الدموع . المستشفى . لا سيدات من فضلكم . سعدية فقط . القافلة . المعادى . حجرة الانعاش . إنها الحجرة ٣٣٤ . الكشف . قناع الأوكسيجين . التحليل . الخطر . إنها العاشرة إلا الربع من صباح الأربعاء . لحظة لا تنسى مطلقا . قبل تلك اللحظة كانت أم كلثوم فى رعاية الأطباء .

من الآن فصاعدا .. أم كلثوم فى رعاية الله .

●

إشاعة متنكرة فى شكل سؤال : هل رحلت أم كلثوم ؟

●

الطوارىء . التليفونات . رئاسة الجمهورية على التليفون . الغرفة ٥٠١ . مزيد من القلق . القصر الملكى من الرياض . دمشق على التليفون . بيروت . الخرطوم . تونس . السؤال والاجابة .. والقلق بينهما .. القلق والوحدة والأزمة .

كانت آخر أزمة توسطت فيها لدى أم كلثوم قبل سنة ونصف . أزمة تعلقت بعبد الحليم حافظ .. وبى أيضا . إن شهر رمضان يأتى كل سنة لكى يشهد ذروة المنافسة بين محطات الأذاعة المختلفة حرصا على اجتذاب أكبر عدد من المستمعين .. ونجحت محطة إذاعة الشرق الأوسط أخيرا فى إقناع عبد الحليم حافظ بأن يكون بطل مسلسلها الدرامى الرئيسى الذى تقدمه إلى المستمعين عقب أذان المغرب مباشرة . واختار عبد الحليم قصة « أرجوك .. لا تفهمنى بسرعة » .. من تاليفى .. لكى تكون هى الحلقات المسلسلة .

ومع اقتراب شهر رمضان .. كان ستوديو التسجيل بمحطة إذاعة الشرق الأوسط يحتشد كل يوم بعبد الحليم حافظ وعادل أمام ونجلاء فتحى وكل نجوم مسلسل « أرجوك .. لا تفهمنى بسرعة » حيث تعاقدت الاذاعة مقدما مع الاذاعات العربية لاذاعة المسلسل يوميا فى نفس الوقت .

وقبل اول رمضان بأربع وعشرين ساعة .. فاجأنى عبد الحليم بخبر تليفونى لم اتوقعه : إن مذكرات أم كلثوم التى سجلتها بصوتها لأول مرة ، ستذاع من محطة صوت العرب بعد أذان المغرب مباشرة ، أى فى منافسة مباشرة لمدة ثلاثين يوما . مع قصة كتبتها انا ، ويقوم ببطولتهاهو

كان هناك جفاء بين أم كلثوم وعبد الحليم حافظ منذ سنوات . جفاء صامت . لقد امتدت وصلة أم كلثوم الغنائية فى الاحتفال السنوى بعيد الثورة ، بحيث أن عبد الحليم وجد نفسه يبدأ وصلته بعد أم كلثوم فى الثالثة صباحا . ومن قبيل المداعبة مع الجمهور .. قال عبد الحليم فى الميكروفون أنه لولا أم كلثوم لغنى لهم فى وقت مبكر . يومها لم تقبل

أم كلثوم المداعبة .. بحيث أصبح الحل بعد ذلك هو أن يغنى كل منهما فى حفل مستقل .

وبالطبع حاول عبد الحليم بعد ذلك إزالة هذه الجفوة مع أم كلثوم ، ثم تجمدت المحاولة بعد قليل .

ثم جاءت المنافسة الاذاعية فى سنة ١٩٧٣ بين محطتى « الشرق الأوسط » .. و « صوت العرب .. بالمحطة الأولى فخوره ببطولة عبد الحليم لمسلسلها الرئيسى .. والمحطة الثانية فخوره بنجاحها أخيرا فى إقناع أم كلثوم بتسجيل مذكراتها بصوتها لأول مرة .

وحينما حكى لى عبد الحليم ما حدث من تحديد نفس الموعد للمنافسة بين المحطتين ، لاحظت أن فى لهجته درجة من المرارة التى تنطلق من اقتناعه بالطبيعة العنيدة لشخصية أم كلثوم .

لحظتها أصبحت أنا فى موقف لا أحسد عليه .. ليس فقط لصداقتى مع الطرفين .. ولكن لأننى كنت الوسيط الأساسى لدى أم كلثوم من جانب إذاعة صوت العرب لاقناعها بفكرة تسجيل مذكراتها الصوتية هذه .

وذهبت إلى أم كلثوم .. لقد رويت لها ما حدث .. وقلت لها أننى أرى أن وجودها فى محطة إذاعية ، ووجود عبد الحليم فى محطة أخرى .. فى نفس الموعد .. ولمدة ثلاثين يوما .. معناه أن الجمهور لأن الجمهور يريد بالطبع أن هو الذى سيكون الضحية يستمتع بأم كلثوم وعبد الحليم .. وليس بأحدهما على حساب الآخر ثم قلت .. وقلت .. وقلت .. إلى أن قاطعتنى أم كلثوم بقولها متسائلة :

— من الذى قال إننى طلبت موعدا محددا لاذاعة حلقات المذكرات ؟!

وهنا فقط تأكد حدسى السابق ، من أن هناك بالفعل خطأ ما فى المسألة كلها ، وأيا كان وراء هذا الخطأ .. فأم كلثوم ليست طرفا فيه .

وعلى الفور ذهبت إلى عبد الحليم . وحينما دخلت عليه كان هو فى منتصف مكالمة تليفونية يقول فيها إنه فى أى شىء يتعلق بأم كلثوم .. فإنه يفضل أن يكون هو الطرف المتنازل لها .

لكن الأزمة العابرة ، تبخرت على الفور .. وانطلق الطفل فى داخل عبد الحليم حافظ صائحا ومرحا وضاحكا بمجرد أن نقلت إليه الكلمات

الطيبة التى قالتها عنه أم كلثوم فى حوارها معى . هكذا بقى مسلسل « أرجوك .. لا تفهمنى بسرعة » فى موعده بمحطة الشرق الأوسط بعد أذان المغرب .. وأصبحت حلقات مذكرات أم كلثوم تذاع فى منتصف الليل من محطة صوت العرب .. وظل الجمهور يستمتع بهما معا .. وعبر جميع المحطات الاذاعية فى العالم العربى .. إلى أن بدأت حرب أكتوبر .

●

لم نعد فى أكتوبر .. نحن فى الأيام الأخيرة من يناير . والسنة ١٩٧٥ . وأم كلثوم فى المستشفى .

●

تليفون من مصطفى أمين : الصحفيون ممنوعون من دخول مستشفى المعادى لمتابعة أخبار الحالة الصحية لأم كلثوم . أريدك أن تأخذ فريقا من المحررين وتوزع عليهم العمل .. إن لدينا أم كلثوم واحدة فى العالم العربى ، وتستطيع أن تقنع أسرتها بأننا كصحفيين مطالبون أمام الرأى العام بمتابعة حالتها الصحية .

لم أكن أحب دخول المستشفيات ، حتى ولو كان مستشفى المعادى . لكن هذا مصطفى أمين يتكلم ، والصحافة عنده تأتى أولا ، والناس بالفعل قلقون على أم كلثوم ، ومن قلقهم تتوالد الاشاعات .

إذن : إلى مستشفى المعادى .

●

المستشفى .

هذا أول مستشفى أدخله فى حياتى . عندما وصلت كنت قد أصبحت أنا نفسى مريضا . الصمت والهدوء والقلق والتوتر وغرفة الانعاش . يسمونها طبيا : « وحدة العناية الفائقة بمرضى القلب » . إننى لم أجرؤ على الدخول . أو حتى مجرد النظر . إذن .. فلأذهب إلى الغرفة ٥٠١ حيث يوجد بعض أفراد الأسرة .. فربما يوجد شىء مطمئن .

●

الطوارىء . التليفونات . القلق . رئاسة الجمهورية على التليفون للمرة العاشرة . محمد عبد الوهاب وآخرون وآخرون وآخرون .

أن تكون قريبا من أم كلثوم معناه ان تعيش فى دنيا أم كلثوم . دنيا أم كلثوم هى الغناء . إن الغناء كان هو فكرتها الأولى عن الحياة . إن اللغة داخل منزلها كانت هى دائما : ما هو موعد الحفلة ؟ موعد

التسجيل ؟ موعد البروفة ؟

حينما تغنى ، أو تستعد لكى تغنى ، فإنها كانت تطير فى الهواء ، حتى وهى فوق كرسى . إنها تسبح فوق المسرح كما لو كانت لها أجنحة خفية غير مرئية . لحظتها تذوب الانسانية فى صوتها . لحظتها يمتصها صوتها بحيث لا يبقى منها أى شىء آخر . إنها تغنى عن الحب .. عن دموع .. عن رقة تموت .. أو دفء يبدأ .. عن عاشقة وحيدة .. عن ذكريات .. عن هزيمة عاطفية .. عن سؤال توجهه .. عن ألف ليلة وليلة .. عن رقة الحب .. عن دنيا جديدة كاملة من الألم والأمل .

دنيا أم كلثوم الآن مليئة بالألم . إنه الألم والوحدة . لقد حققت لنفسها الحب والشهرة ، والمكانة ، والصيت ، والنفوذ ، والثروة . لقد غنت ونجحت واستمرت .. بحيث بدا الزمن وكأنه محايد معها .. بل وحليف لها فى أحيان كثيرة .

ولكن الفنان ينسى أنه فى اللحظة التى يصنع فيها مجده .. فإنه فى الواقع يصنع فيها أيضا سجنه . إن الفنان الذى يجعله جمهوره نجما لامعا .. يصبح فى نهاية المطاف وحيدا ، وحزينا . وحيدا مع شهرته الواسعة .. وحزينا على إنسانيته المتراجعة .

إنه ـ إذا كان رجلا ـ فربما تجعله النقود أكثر رخاء . وإذا كانت امرأة ، فإن الوحدة فى حياتها تصبح أكبر من أى شىء آخر . إنها ، حتما ، تأتى أسرع . إن الزمن هو دائما عدو المرأة .. حتى بالنسبة لأسطورة كأم كلثوم .

إن معظم النجوم غيرها ، يقضون السنوات العشر الأخيرة من حياتهم فى صحبة الأقراص المنومة ، أو الخمر ، أو المخدرات ، أو أى شىء آخر يساعدهم على التخلص من ليل طويل ، موحش ، وحزين . ليل من الوحدة ..

والانتظار .. والأمل فى صباح مزدحم . صباح مختلف . إن الزحام يتراجع دائما مع الظلام . الآن ينتهى الفنان .. ويبدأ الانسان . هنا يبدأ الليل .

فى ظلام الليل تأتى الوحدة القاتلة . الوحدة مع البوم صور قديمة .. أو خطابات أيام مضت .. أو تسجيلات يوم بعيد .. أو حتى مجرد الوحدة مع إعلانات التليفزيون .

ولكن أم كلثوم بدت دائما بغير زمن . بغير عصر . إنها عاشت دائما في القمة . وعندما انتهى الغناء راحت القمة ، وراحت معها علامات الحياة ذاتها .

وفي حياتها كانت الصفة المدهشة في أم كلثوم هي أنها تجعلك تشعر فورا بأنك في بيتك وبين أسرتك . إنها تعطيك دائما انطباعا بأنك أهم إنسان في حياتها . لقد قابلت في حياتي ثلاث شخصيات فقط لديهم هذه الدرة ، كانت أم كلثوم على رأسهم .

ربما كان هذا هو الذي يجعلها ترقد الآن على سرير الانعاش وسط بحر من الوجوه الصديقة التي ظهرت فجأة . إنها الآن تغني أصعب ألحانها . تغني أغنيتها الشخصية . إن لدي رغبة جارفة في أن أراها من زجاج الغرفة ، ولكن في داخلي أيضا خوف مطلق من أنني لن أستطيع .

●

الغرفة ٣٣٤ :

لا يمكن . هذه ليست أم كلثوم . هذا مجرد كاريكاتير . إنه كاريكاتير أم كلثوم . أن حجرة الانعاش هذه .. هي آخر حصن تحتمي به ، وآخر احتياطي تنفق منه ، وآخر سور تتراجع إليه ، وآخر نقطة تنكمش فيها . أن الحياة هنا تمضغها ، والمرض يمضغها ، والصراع مع المرض يمضغها . لقد أصبحت الآن نموذجا لضعف الانسان قبل أن تكون دليلا على عظمته .

إنني لا أصدق .. لماذا أصبح قلبها بهذا الصمت .. وشفتاها بهذا السكون .. ونومها بهذا الطول ؟ لماذا تبدو الغرفة باردة هكذا ؟ إن سعدية ترتجف داخل الشال الأحمر الذي أحاطت نفسها به . لا شيء تفعله سوى أنها تبكي وتتطلع إلى أم كلثوم .

إنها ترقد في السرير ، بحزمة تجاعيد حول يديها ، وسعدية تتألم في صمت إلى جوارها ، وأجهزة طبية عديدة إلى جوار السرير . إن زوجها المستشار يكلمها . حرام عليكي يا سعدية . حرام عليكي نفسك .. سامعاني ؟ استريحي شويه .. استريحي ياسعدية .. أنني أغوص ، أتلوى .. أنني .. حسنا .. قلت لك استريحي شويه ياسعدية .

●

الغرفة ٥٠١

حسن . محمد . مدحت . ممدوح . دسوقى . الجميع فى حجرة واحدة ولكن لا يجمعهم سوى دخان السجائر . إن أم كلثوم الفنانة جعلت الحياة بالنسبة لنا أكثر احتمالا . ولكن أم كلثوم الانسانة تجعلنا الآن أكثر ضعفا . إننا نتفادى النظر إلى بعضنا ، وفجأة تتسمر عيوننا على وجوه بعضنا البعض . لقد أطبقت علينا جدران الحجرة ودخانها . سجائر . سجائر . سجائر . كان الطبيب بيننا هو العلاقة الوحيدة لنا مع العالم الخارجى . وعندما خرج بدت المسألة كما لو أنه قد سحب معه من الحرجة كل الأوكسيجين الذى يجب أن نتنفسه .

إننا نثرثر بكلمات لا معنى لها . كلمات تدور عن كل شىء إلا عن الموضوع الرئيسى الذى تجمعنا بسببه . لقد قررنا ألا نتكلم فى صحة أم كلثوم . ولكن الأمر بدا كما لو أننى قلت لنفسى فى الدقيقتين التاليتين لن أفكر فى صحتها .. صحتها .. صحتها .. صحتها .

●

ماتت أم كلثوم .

●

خلق الانسان ضعيفا .

● ● ●



كتب للمؤلف

دراسات سياسية

ممنوع من التداول	(دار الشروق)	الطبعة السابعة
أفكار إسرائيلية	(كتاب الاذاعة)	الطبعة الثانية
الحرب الرابعة ـ سرى جدا	(المكتب المصرى)	الطبعة الثالثة
متمردون لوجه الله	(دار الشروق)	الطبعة الثالثة
وعليكم السلام	(دار المستقبل العربى)	الطبعة الثالثة

دراسات أدبية

أفكار ضد الرصاص	(دار الشروق)	الطبعة الخامسة
شخصيات	(دار المعارف)	الطبعة الثانية
سياحة غرامية	(دار الشروق)	الطبعة الرابعة
مصرى بمليون دولار	(مكتبة الأنجلو)	الطبعة الثالثة
أوراق إلى حبيبتى	(دار الشروق)	الطبعة الأولى

دراسات فنية

أم كلثوم التى لايعرفها أحد	(كتاب اليوم)	الطبعة الرابعة
محمد عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد	(دار المعارف)	الطبعة الثانية

فى الرواية والقصة

أرجوك لا تفهمنى بسرعة	(الكتاب الذهبى)	الطبعة الثانية
شيء يشبه الحب	(كتاب اليوم)	الطبعة الأولى

كتاب اليوم

أنشأه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

طلعت الزهيرى

العدد ٢٦٧ — شعبان ١٤٠٧ هـ — أبريل نيسان ١٩٨٧ م

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشـــتراكات

جمهورية مصر العربية :

قيمة الاشتراك السنوى ٦ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ١٣ دولار امريكى اوما يعادله ١٥ جنيه مصرى

باقى دول العالم واوربا والامريكتين واسيا واستراليا ١٨ دولار امريكى اوما يعادله ٢٠ جنيه مصرى

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ١٣ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

اسعار كتاب اليوم

المغرب ١٢٥٠ فرنك
لبنان ١٥٠٠ ق ل
الاردن ٦٠٠ فلس
العراق ١٥٠٠ فلس
الكويت ٧٠٠ فلس
السعودية ٧ ريالات
السودان ١٥٠٠ مليما
تونس ١٤٠٠ مليما
الجزائر ١٢٥٠ سنتيما
سوريا ١٤٠٠ ق.س
الحبشة ٦٠٠ سنت
الخليج ٤٠٠ فلس

سلطنة عمان ٨٠٠ بيسه
غزة ٧٥ سنت
اليمن ٨٠ بنى
الصومال نيجيريا ٨٠ بنى
السنغال ٦٠٠ فرنك

انجلترا ١٠٠ بنى
فرنسا ١٠ فرنك
المانيا ٥ مارك
ايطاليا ٢٠٠٠ ليرة

فى الخارج

هولندا ٥ فلورين
باكستان ٣٥ روبية
سويسرا ٤ فرنك
اليونان ١٠٠ دراخمة
النمسا ٤٠ شلن
الدنمارك ١٥ كرونات
السويد ١٥ كرون
الهند ٣٥٠ سنتا
كندا امريكه ٣٠ سنت
البرازيل ٤٠٠ كروبزو
نيويورك ولندن ٣٥ سنتا
لوس انجلوس ٤٠٠ سنت
استراليا ٤٠٠ سنت

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٢٨١٧ / ٨٧

الترقيم الدولى ٠ ـ ١٧١ ـ ١٢٤ ـ ٩٧٧

تليجرام

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

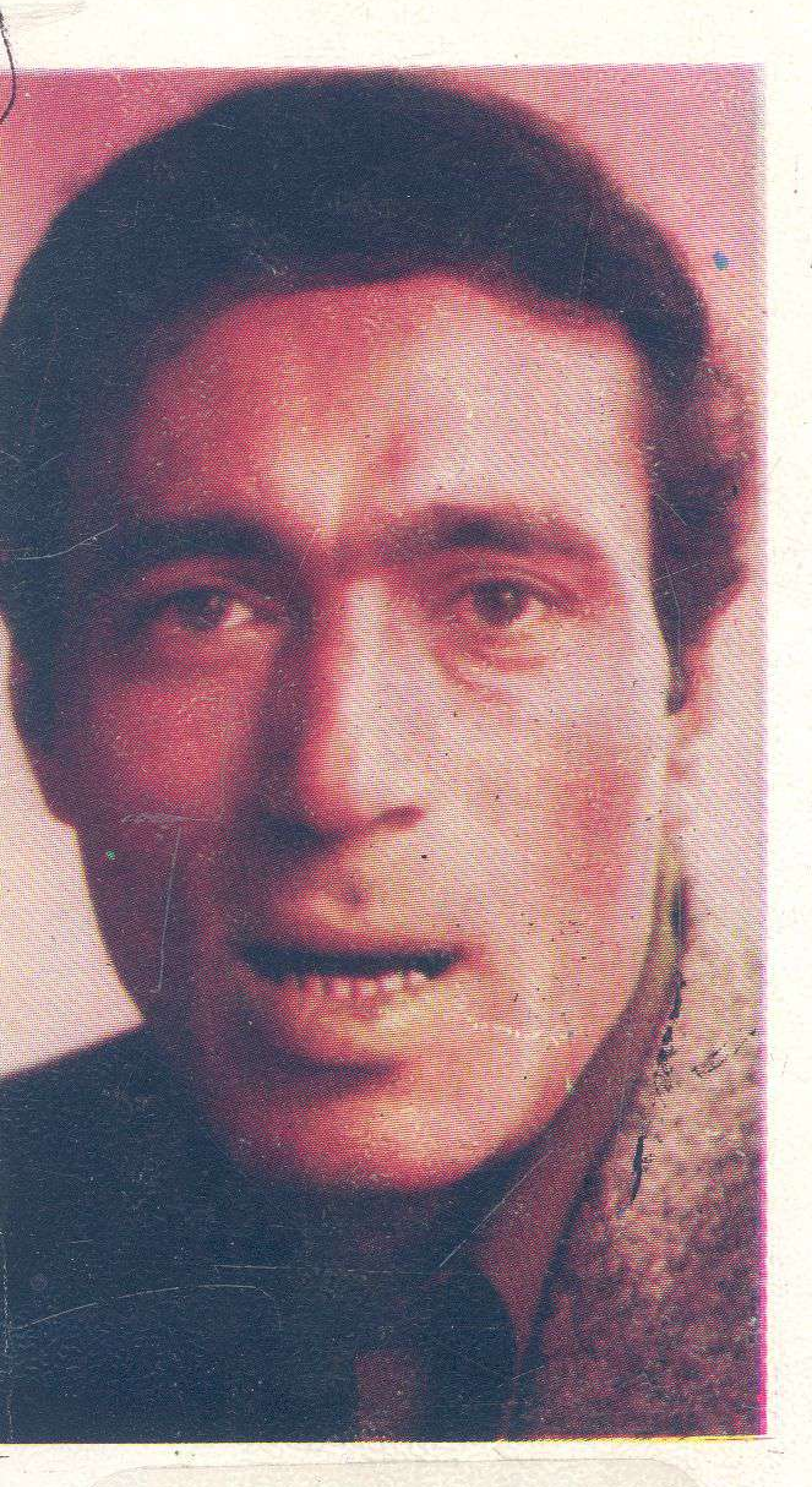
باحثون

محمد خطاب

تليجرام

هنا

سور الأزبكية



هـذا الكتـاب

لم تكن أم كلثوم مجرد مطربة يسهر الملايين فى أنحاء العالم العربى لسماعها فى الخميس الأول من كل شهر . لقد كانت دنيا بأسرها . كانت موهبة . . وشخصية . . ونفوذا . . وسلطة عاطفية . . وتناقضا حادا بين حياتها الخاصة وحياتها العامة . .

هذا ما يقدمه ويفسره هذا الكتاب عن أم كلثوم . . بقلم الكاتب الشاب محمود عوض ، الذى كان صديقا شخصيا لأم كلثوم . . برغم اختلاف الأجيال .

وهذه الطبعة الرابعة من الكتاب تصدر بعد أن سجلت الطبعات الثلاث الأولى أرقاما قياسية فى الانتشار ؛ وبعد أن أضاف إليه محمود عوض فصلا ختاميا عن أصعب الأغنيات الشخصية التى استخلصها القدر من أم كلثوم بين جدران المستشفى .

لقد عاشت أم كلثوم خمسين سنة من حياتها فى الصفحة ال...
وهذا الكتاب يقدم جزءا من الصفحات الأخرى المجهولة ...
محمود عوض بقلمه الشاب . . وأسلوبه الرشيق . .
العصرى . .

« كتاب ال...

٥٠ قرشا